

روايات عالمية للجيب 68

Looloo

www.dvd4arab.com

نداء كُتُولُو

تأليف : هـ. ب. لافكرافت
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق



المؤلف



هذا هو لقائنا الثاني - ربما الثالث - مع هوارد فيليب لافكرافت Lovecraft ، الذى صرنا نعرفه جيداً .. هناك معلومات لا بأس بها عنه فى الكتيبين 36 و 37 من هذه السلسلة ، لكننا نعيد هنا للتذكرة .

ولد الرجل فى 10 أغسطس عام 1890 ، فى (بروفيدنس) - (رود آيلاند) .. فى هذا المكان تدور أحداث معظم رواياته المخيفة . عاش تجربة قاسية مع مرض غامض أصاب أباه جعله فى غيبوبة لفترة طويلة جداً .. على الأرجح كان المرض هو زهرى الجهاز العصبى .

بدا نبوغ لغوى مبكر جداً على الصبى الذى تعلم القراءة فى سن الثالثة وكتب فى سن الخامسة . بالطبع تركت قصص ألف ليلة وليلة أثراً لا يمحو لديه ككل كتب غربى آخر فى الواقع . فى هذه الفترة أطلق على نفسه (عبد الله الحظرد) وهو الاسم الذى استعمله فيما بعد ليكون صاحب كتاب (العريف) المخيف

فائق الشهرة . بعد هذا اكتشاف الأساطير الإغريقية وبصفة خاصة الإلياذة والأوديسة . كان ميالاً للوحدة والانطواء ، وعانى أمراضاً نفسية كثيرة ..

عام 1914 صار رئيس رابطة الأبناء الشبان وكتب أولى قصصه (الوحش فى الكهف) . كان أصدقاؤه يحبونه ويقولون إنه كان رقيقاً لطيفاً برغم السمعة التى تلاحقه عن كونه يمسك البشر . هناك شاب فى قصة (كتولو) يصفه لافكرافت قائلاً :

« شاب أسمر نحيل بادهى العصبية والقلق ... كان الفتى شديد الذكاء لكنه غريب الأطوار بسبب اهتمامه بدراسة الظواهر الغريبة وكان يعتبر نفسه (شديد الحساسية نحو الخوارق) . ولما كان منطوياً صار خفياً بالنسبة لمجتمعا ، فلم يعد يعرفه سوى عدد قليل من الناس » .

الحقيقة أن بعض النقاد يعتبرون هذا الفتى لافكرافت كما يرى نفسه .

كتب الكثير جداً من القصص والكثير من الشعر ، كما أنه ترك تراثاً هائلاً من الخطابات والمقالات . توفى الرجل فقيراً عام 1937 شاعراً بأن حياته كانت فاشلة ، غير عالم أنه سيصير نوعاً فى الشهرة لمواطنه العظيم (إدجار آلان بو) ، وهو ما يثير أسئلة عديدة عن تركنا لهؤلاء العباقرة يتعجبون فى حياتهم ، ثم تخليدهم وكتابة المجلدات عنهم بعد موتهم .

ترك لافكرافت تراثاً خيالياً هائلاً يضم أسماء مثل (العزيز) و (نيكرونوميكون) و (كتولو) و (آر خام) .. وهى أسماء صارت شهيرة جداً لدرجة أنه كان يستعملها بين قصة وأخرى ، واستعملها كتاب آخرون فى قصصهم . وهناك كتاب مثل (برايان لوملى) تأثروا جداً بهذه العوالم وكتبوا مثلها بالضبط .. عامة هو متأثر بفكرة الكيانات القديمة Old Ones التى كانت تحكم الكون قديماً ثم نامت أو نسيت ، والتى نقابلها كثيراً فى كتابات (دى) و (كراولى) الساحرين الشهيرين . هناك تيمات ملحة فى كتاباته مثل الشخصيات الحساسة غريبة الأطوار التى تعيش منفردة وتتصل بسر مخيف غامض ، ينكشف لراوى القصة فيجئ أو يهرب ويقضى حياته مذعوراً . هناك الأسماء التى تحمل طابع (نيو إنجلند) - مسقط رأسه - والتى يحب أن يستخدمها فى عناوين القصص مثل (وصية راندولف كارتر) و (حالة تشارلز دكستر وارد) و (ظل فوق إنزماوث) و (ريتشارد بيكمان) و (آرثر جيرمين) ... إلخ ..

اليوم نلتقى مع مجموعة من قصص لافكرافت القصيرة التى تحمل إحداها عنوان (نداء كتولو) .. هذه قصة شهيرة جداً كتبها عام 1926 ونشرت فى مجلة (حكايات غريبة) عام 1928 .

يعرف عشاق لافكرافت أن كتولو كائن يتكرر بإلحاح في أدب الرجل . ويرى بعض النقاد الغربيين أن الكائن مستوحى من شخصية (الكراكين) الوحش النائم في حفرة في أعماق المحيط في قصيدة لـ (تينيسون Tennyson) . إنه الوحش الأخطبوطي المكلف بالتهام الحسناء أندروميذا والتي سينقذها (برسبيوس) في آخر لحظة بالاستعانة برأس ميدوسا . لو أفاق كتولو فلن يعود هناك عالم نعيش فيه . اعتقادي الشخصي هو أن لافكرافت كان يؤمن بوجود كتولو والكيانات القديمة فعلاً .. اهتمامه يتجاوز الولع الأدبي إلى ما يشبه الافتتان الديني بالفكرة .

من جديد يترك لافكرافت بصمته في كل مكان : مثلاً نجد في قصة (كتولو) مفتش شرطة اسمه (ليجراس) .. يستعير كاتب الرعب (هندرسون) هذا المفتش في مجموعة قصص خاصة به تحمل عنوان (حكايات المفتش ليجراس) ، كما يستعيره (مارك إليس) في قصته المصورة (الهامس في الظلام) .

لم تضع تركة لافكرافت لأن تلاميذه وعلى رأسهم (أوجست ديرليث) قاموا بافتتاح دار نشر اسمها (آرخام Arkham) وقد تولت نشر أعماله المتناثرة في عشرات المجلات ، فالرجل لم يصدر أي كتاب في حياته سوى (ظل فوق إينزماوث) . كان

(ديرليث) تلميذاً مخلصاً لكنه بالغ بعض الشيء ؛ لأنه أصدر كتاباً كاملاً يدور حول محاوراته مع (لافكرافت) ، وفيما بعد اتضح أنها محاورات لم تحدث قط بل هي وليدة خياله !

اليوم يمثل (لافكرافت) تراثاً شديد الأهمية في الأدب الغربي والأمريكي بالذات لا يقل عما تركه الشاعر العظيم إدجار آلان بو .

د . أحمد خالد

1 - رعب على الصلصال ..

أعتقد أن أكثر الأشياء رحمة هي عجز العقل البشري عن الإلمام بمكونات الكون . نحن نعيش في جزيرة هادئة من الجهل وسط بحار سود من اللاتهائية ، وقد كتب علينا ألا نبحر بعيداً . والعلوم التي يبحر كل منها في اتجاه لم تؤدنا كثيراً ، لكن يوماً ما سوف تتجح تلك المعارف المتناثرة في فتح ثغرات في جدار الحقيقة ، ونفهم وضعنا المخيف . عندها إما أن نجن أو نفر من الضوء إلى الظلام والأمان حيث العصور المظلمة الجديدة .

لقد فهم علماء الدين والفلاسفة حجم الكون المروع الذي يبدو فيه وجودنا البشري مجرد حوادث عارضة . لقد لمحوا ، لكن ليس كلامهم هو مصدر ما أراه من تلك الحقب المظلمة التي تفرغني عندما أفكر فيها ، وتثير جنوني عندما أحلم بها . هذه اللحظة جاءت من احتشاد أشياء متناثرة .. مثلاً في هذه الحالة جاءت من جرائد قديمة ومذكرات أستاذ جامعي ميت . وأتمنى ألا ينجح شخص آخر في جمع هذه الصورة ثائية ، لأنني ما دمت حيّاً لن أضع حلقة أخرى في تلك السلسلة المخيفة .

أحسب أن البروفسور أراد أن يخفي ما يعلمه ، وكان ليدمر المذكرات لولا أن الموت اختطفه .

نداء كتولو

بدأ كل شيء علم 1926-1927 مع وفاة عمى (جورج جامل أنجيل)
الأستاذ الفخري للغات السامية في جامعة برلن بروفينس ..
كان عمى حجة في النصوص القديمة وكانت متاحف كثيرة
تستشيرها لذا سوف يتذكر كثيرون وفاته في سن التسعين . وفاته
أيضا كانت غريبة لأنه هلك وهو يغادر قاربه إذ دفعه زنجى له
سمت البحارة . لم يعرف الأطباء سبب الوفاة وإن قدروا أنه خلل
في قلب العجوز الذى لم يتحمل تلك السقطة .. لم أر شيئا غريبا
في هذا .. لكننى فيما بعد بدأت أتساءل وما زلت ..

كنت وريث عمى ومنفذ وصيته لأنه مات أرمل بلا ابن . لهذا
قمت بنقل كل أوراقه إلى مكتبى فى بوسطون لأن على أن
أدرسها بعناية . معظم هذه الأوراق ستشرها الجمعية الأثرية ،
لكن هناك صندوقا واحدا أكره أن يراه أحد .

كان مقلقا ولم أجد المفتاح حتى خطر لى فحص حلقة المفتاح التى
يحملها عمى فى جيبه ، وبالفعل فتحتة لكنى وجدت عقبة أصعب ..

ما معنى نقش غريب على قطعة صلصال ومجموعة أوراق
لا علاقة بينها ؟ .. هل كان عمى فى أواخر أيامه ضحية نصب ؟ ..
كان النقش على شكل مستطيل سمكه أقل من بوصة ومساحته
ست بوصات ومن الواضح أنه حديث العهد .. لكن تصميمه كان

لا يمت للحدث بصلة بل هو يمت لانتظام الغامض المميز لكتابات
الأقدمين . ومن الغريب أن عمى لم يشر قط لهذه القطعة فى
أوراقه كلها لم توجد .

فوق النقوش كان حفر لشكل معين يصعب تبين طبيعته ، لكنه
بدانى كوحش ما أو رمز يمثل وحشا . ربما أقول لك إننى تخيلت
رؤية لخطوط وتين ورسم كاريكاتورى لإنسان ، لكنى بهذا أن أكون
أمنيا فى الوصف . رأس ذو ممسك فوق جسد قشرى له جناحان
ضامران ، وخلفية الصورة تعطى انطباعا ببنية هندسية ضخمة .

كانت الكتابة المرافقة لهذا الرسم بخط البروفسور ، وكانت
تحمل عنوان (طائفة كتولو) ، بحروف كتبت بعناية لا تسمح
بالخطأ . كان النص مقسما لقسمين ، الأول يحمل عنوان (1925
الحلم وأعمال الحلم بوساطة ه . أ . ويلكوكس) . والثانى يحمل
عنوان (قصة المفتش جون ليجراس من نيو أورليانز) . وكانت
باقى الأوراق تضم أجزاء من كتب عن أطلنيس وإيموريا . كما
كان هناك كلام عن كتاب (الفصن الذهبى) لفريزر وكتاب مورى
(جماعات السحر فى شرق أوروبا) .

القسم الأول كان يحكى حكاية معينة : يبدو أنه فى مارس عام
1925 قد زار البروفسور شاب أسمر نحيل بذى العصبية والقلق ،
ومعه قطعة صلصال التى كانت طارئة لينة وقها . كانت بطاقته

تحمل اسم (هنري أنطوني ويلكوكس) ، وقد عرف عمى أسرته . وهو يدرس الفنون ويعيش وحده في (فلير دى ليس) . كان الفتى شديد الذكاء لكنه غريب الأطوار بسبب اهتمامه بدراسة الظواهر الغريبة وكان يعتبر نفسه (شديد الحساسية نحو الخوارق) . لما كان منطوياً صار خفياً بالنسبة لمجتمعنا ، فلم يعد يعرفه سوى عدد قليل من الناس في البلدان المجاورة .

كان قد جاء لعمى يطلب عونه في قراءة النقوش على الصلصال .. لكن عمى كان حاداً معه لأن طزاجة العينة التي أحضرها جعلت لها علاقة بكل شيء ما عدا علم الآثار . لكن الفتى أفهمه أن هذا الصلصال حديث فعلاً لأنه نقش عليه ما رآه في الحلم .

هكذا بدأ يحكي القصة الغريبة التي نالت اهتمام عمى المحموم .

ليلة أمس كانت هناك هزة أرضية خفيفة ، وهي أقوى هزة شعرت بها (نيو إنجلند) منذ سنوات . عندما نام الفتى حلم بمدن عملاقة بها مبان ضخمة ونصب حجرية تتأطح السماء ، كلها ينز منها سائل أخضر لزج ويغمرها رعب خفى . كانت النقوش الهيروغليفية تغطي كل شيء ، ومن مكان ما جاء صوت ليس بصوت ، بل هو شعور مضطرب يقدر الخيال فقط على أن يعتبره صوتاً . لكنه تبين فيه كلمة (كتولو فاتجن) .

كانت هذه الكلمات مما أثار عمى البروفسور (أنجل) . وراح يستجوب الفتى ويتفحص النقش الذي صنعه على الصلصال . فيما بعد ندم عمى كثيراً لأنه لم يفهم المعنى الفوري لهذه النقوش ، وأضاع الكثير من الوقت يستجوب الفتى عما إذا كان ينتمي لجماعة دينية أو وثنية سرية مع الوعد بأن يظل الأمر سراً . فلما أيقن أن الفتى لا يدارى سراً أخذ منه وعداً بأن يخبره بمحتوى أحلامه في المرات القادمة .

في المرات التالية تكررت أحلام مماثلة ، لكن الفتى كان يسمع فيها دوماً كلمتى (كتولو) و (رليه) ..

في 23 مارس لم يظهر للفتى ، وبالسؤال عنه عرف أنه مصاب بحمى غامضة وقد نقل إلى بيت أسرته في شارع (ووترمان) . هكذا ظل عمى يتصل لمعرفة أخباره كما راح يتردد على طبيبه المعالج . كان الفتى غارقاً في الهلوس وقد تكررت ذات الرؤى التي وصفها من قبل ، مع وصف شيء ارتفاعه عدة أميال يتحرك ..

كان رأى الطبيب أن الحمى ناجمة عن مرض عضوى ، ولا يمكن تفسيرها باختلال عقلى .

في 2 أبريل زالت كل أسباب مرض (ويلكوكس) وجلس في فراشه مندهشاً من كونه في بيته ، فهو لا يذكر أى شيء حدث له منذ 22 مارس . وقد رأى الطبيب أنه استعاد صحته ، لذا عاد لدراسته .

لم يعد الفتى ذا نفع للبروفسور (أنجل) لأن كل ذكريات الحلم اختلقت مع شفائه . هنا ينتهى الجزء الأول من المذكرات لكن هناك مذكرات أخرى جعلتلى أفكر بصوتى .

كانت تلك المذكرات تصف أحلام أشخاص آخرين ، تقع فى ذات الفترة التى تدور فيها أحلام ويلكوكس . لقد أجرى عمى بحثاً مفصلاً بين مجموعة كبيرة من الناس يطلب منهم فيه أن يحكوا أحلامهم . لا أعرف مدى الاستجابة لمطلبه ، لكنه تلقى أوراقاً تفوق قدرة رجل بلا سكرتير على المثابرة .

كان الناس للعاديون الذين يشكلون (منح الأرض) فى نيو إنجلاند لا يشكلون أهمية ما لأنهم لم يروا شيئاً ، ورغم بعض حالات متناثرة مقلقة كلها فى الفترة بين 22 مارس و2 إبريل . العلماء كذلك لم يعطوا معلومات مهمة .. فقط الشعراء وأهل الفن هم من أعطوا إجابات مهمة . وكان الذعر ليصيبهم لو قارنوا أحلامهم ببعضها .. أحد الحالات كان مهندساً مولعاً بالأمور الغامضة وقد أصابته حالة جنونية تتوافق مع الحمى التى أصابت ويلكوكس ، ثم مات بعد هذا بشهر وهو يصرخ طالباً من ينقذه من شيء فر من الجحيم .

يبدو أن عمى استعان بوكالة صحفية ما تجمع له أخبار الصحف حول العالم .. مثلاً هناك مهندس فى لندن كان يحلم ثم نهض صارخاً وألقى بنفسه من نافذة . هناك أخبار من أمريكا الجنوبية . فى الهند هناك برقية تصف هياجاً بين الأهالى فى يومى 22 و23 مارس . هناك رسام فرنسى علق لوحة مخيفة اسمها (صورة حلم) فى صالون باريس .

عدد كبير من القصصات ، جعلتلى أتساءل كثيراً عن معنى هذا .

2- حكاية المفتش ليجراس ..

الأمور التي شكلت أحلام النحات وجعلت عمى مهتماً بالنقوش لهذا الحد ، كانت هي موضوع القسم الثاني من النص . يبدو لي أن البرفسور نفسه رأى المعالم الجحيمية لتلك البشاعة التي لا اسم لها والنقوش الهيروغليفية الغامضة وسمع المقاطع التي تبدو مثل (كتولو) .

حدثت هذه التجربة المبكرة عام 1908 قبل 17 عامًا عندما عقدت جمعية الآثار الأمريكية اجتماعها السنوي في سانت لويس . هذه اللقاءات فرصة يقصدها كل من لديه أسئلة يبغي إجابات عنها ، وكان من جاء لهذا الاجتماع رجلاً عادى المظهر في منتصف العمر جاء من (نيو إنجلاند) طلباً لمعلومات ما كان ليحصل عليها من مصدر آخر . كان اسمه (جون ريمون ليجراس) وكان مفتش شرطة . ومعه كان يحمل تمثالاً منفراً قديماً جداً عجز عن تحديد مصدره . وعليك ألا تتخيل أن المفتش كان لديه أى اهتمام بالآثار . كان الأمر اهتماماً مهنيًا صرفاً .. لقد وجدوا التمثال جنوبى نيو أورليانز أثناء (كبسة) قاموا بها على حفل لسحرة الفودو ، وكانت الطقوس مخيفة لدرجة أن

البوليس عرف أنه وجد ديانة مجهولة لهم بالكامل ، أكثر شيطانية من أية ديانة فودو أخرى .

لم يتمكن أحد من معرفة أصل هذه الطقوس لهذا قدر رجال الشرطة أن التمثال قد يقودهم لمعرفة مصدر هذه الممارسات الشنيعة .

لكن المفتش لم يتوقع رد فعل العلماء الذين رأوا التمثال فالتفوا حوله .. قدمه و غرابية أسلوب النحت جعلاه غريباً غير مألوف . كان لارتفاعه نحو سبع بوصات يمثل وحشاً له منظر شبه بشرى ، لكن رأسه هو أخطبوط ، وجلده زلق مغطى بالحرشف وله جناحان صغيران . كان مكتنزاً يجلس على صخرة عليها كتابة لا يمكن فهمها . كان الرأس مائلاً للأمام بينما امتدت ممسكته تلمس مخالفه الأمامية . أما أكثر ما يثير الذعر فهو أن كل شيء حقيقى جداً وبرغم هذا لا يمكن معرفة مصدره . حروف الكتابة كانت غريبة جداً فلم يستطع أى واحد من هؤلاء الخبراء العالميين تحديد شيء عن مصدرها .

الموضوع والمادة كاتا ينتميان لشيء بعيد جداً وغريب على البشرية كما نعرفها . شيء يذكرك بشكل مروع بدورات الحياة التي لم تكن فيها ..

فقط كان هناك رجل واحد تذكر شيئاً مماثلاً ، وهو المرحوم (ويليام تشاتنج ويب) أستاذ الأثروبولوجي في جامعة برنستون . كان الرجل قد قام برحلة استكشافية منذ 48 عاماً إلى جزيرة جرينلاند بحثاً عن آثار (رونية) . على الساحل الغربي قابل قبيلة من الإسكيمو لهم دين غريب يقوم على عبادة الشيطان ، أثاروا رعبه بدموية وبشاعة معتقداتهم . وكنوا يؤمنون أن هذه الديانة جاءت من عصور سحيقة قبل وجود عالمنا . كان هناك كلام عن شيطان قديم اسمه (تورناسوك) حصل البروفيسور على تسجيل صوتي كامل عنه من ساحر عجوز أو (أجيكوك) .

كانت هذه القبيلة تملك فتية خاصة بها وترقص حوله عندما يبرز الشفق القطبي . هذا الفتية كان يشبه في كل شيء هذا التمثال الذي يراه الآن ..

أثارت هذه المعلومات شغف (ليجراس) الذي أمطر البروفيسور بالأسئلة . طلب منه أن يتذكر طقوس عبادة هؤلاء الإسكيمو الشيطانيين ثم قارنها بما سجله من طقوس الفودو التي شهدتها في لويزيانا . لقد ذهّل الرجلان لمدى التطابق بين طقسي تعبد متباعدين في المكان .. هناك جملة تتردد بشكل واضح في الطقسين :

- « فنولوجي مجنونان كتولو رايه وجاتنج فتاجن .. »
وكان المفتش قد سأل هؤلاء الذين اعتقلهم عن معنى هذه الكلمات فقالوا له إنهم عرفوا من أجدادهم أن معناها :
- « في بيته في (رايه) ينتظر كتولو الميت ويحلم .. »

في الأول من نوفمبر عام 1907 جاء بلاغ لشرطة نيو أورليانز من سكان الجنوب حيث المستنقعات . إن السكان هناك طيبون لكنهم بدائيون نوعاً يعانون خوفاً شديداً من شيء ينقض عليهم ليلاً . كان سحر فودو لكنه أكثر إرعاباً من أي سحر عرفوه . لقد بدأت نساؤهم وأطفالهم في الاختفاء مع صوت دقات الطبول التي تكوي وراء الأحرار حيث لا يجسر أحد على الذهاب .

هكذا انطلق عشرون رجل شرطة في سيارتين ومعهم أحد السكان المذعورين كدليل لهم . وراحت السيارتان تشقان طريقهما عبر أحرار لا يخترقها الضوء . في النهاية وصلوا إلى المستعمرة فهرع السكان يستقبلونهم حاملين المصابيح والذعر في عيونهم ؛ لأن صوت الطبول كان يدوي من بعيد . ومن حين لآخر تكوي صرخة تجمد الدم في العروق .

رفض الأهالي جميعاً أن يتقدموا خطوة واحدة نحو مكان تلك الطقوس الدنسة . هكذا اضطر المفتش ليجراس ورجاله إلى أن يذهبوا وحدهم نحو مصدر تلك الضوضاء .

كانت المنطقة التي دخلها رجال الشرطة منطقة محرمة على البيض ، تسود فيها أساطير عن كائن أبيض عملاق كثير الزوائد له عينان لامعتان ، وقيل إن الشياطين التي تبدو كالوطاويط تخرج من كهوف في جوف الأرض كي تعبد هذا الكائن في منتصف الليل . وقيل إنه هناك قبل الهنود .. قبل أن توجد وحوش القابة .. كان هو الكابوس ذاته ، وكان معنى أن تراه أن تموت ، لكنه كان يرغم الناس على الحلم .

فقط لا يقدر على فهم الأصوات التي سمعها ليجراس سوى الجنون أو الشعر .. هناك نغمات تدل على وجود بشر ونغمات تدل على وجود وحوش . وكانت أغنية مرعبة ترتفع :

« فنوجلوى مجلوناف كتولو رليه وجاتانج فتاجن .. »

هنا وجد الرجال أنفسهم في البقعة التي جاء منها الصوت .. فر واحد ، وأحدهم فقد وعيه ، وصرخ اثنان من هول ما رأيا ..

وسط الأشجار كانت جزيرة معشبة وسطها حشد من القوم العراة يرقصون ويتلوون حول نار مشتعلة ، في وسطها نصب عملاق ارتفاعه ثمانية أقدام على قمته ذلك التمثال ، وحول هذا التمثال كانت سقالات علق عليها عشرة من السكان الأصليين الذين اختفوا ، وقد تشوهت أجسادهم ورعوسهم لأسفل . ربما

كان صدى الصوت هو ما أوحى للشرطة أن هناك من يرد على لقاء وسط الأحراش .

تصلب الرجال للحظات ثم جاء الواجب .. وبرغم أنه كان هناك نحو مائة شخص في الاحتفال ، فإن رجال الشرطة أخرجوا أسلحتهم ، ولخمس دقائق كانت الفوضى عسيرة على الوصف .

فر كثيرون لكن (ليجراس) استطاع أن يعد 45 أسيراً أرغمهم على ارتداء ثيابهم والمشى وسط صفين من رجال الشرطة . مات خمسة من المتعبدين ورقد اثنان بجراح عميقة . وانتزع (ليجراس) التمثال بعناية ، وأخذه معه .

كان أكثر الرجال زنجياً أو مهجنين ، وبعضهم كانوا برتغاليين من جزر (كيب فيردى) .. قالوا إنهم يعبدون (الأحاد القداسي) الذين وجدوا قبل أن توجد نحن وجاءوا من السماء . هؤلاء الأحاد قد غابوا تحت البحر ، لكنهم قادرون على إرسال الأحلام لأتباعهم . قالوا إن هذه العبادة موجودة منذ الأزل وسوف تظل كذلك .. إلى أن ينهض الكاهن الأعظم (كتولو) من سباته وسط أطلال مدينة (رليه) ليحكم الأرض ثانية .

هنا صمت الرجال .. كان هناك سر لا يستطيع التعذيب نفسه أن ينتزعه منهم ..

لا أحد رأى الآحاد القدامى .. التمثال المنحوت هو (كتولو)
لكن من الصعب أن تعرف إن كان الباقون يشبهونه . الأغنية
التي يغنونها تقول :

« في بيته في (رليه) ينتظر كتولو الميت ويحلم .. »

لم يجدوا بين المساجين سوى اثنين عاقلين بما يسمح
بشبقهما أما الباقون فقد أرسلوا لمصحات مختلفة . المعلومات
الوحيدة ذات القيمة كانت من رجل نصف هندي نصف أوروبي
اسمه (كاسترو) قال إنه سافر لموانٍ بعيدة وتكلم عن هذه
الديانة مع الكهنة في الصين . حكى عن حقب حكمت فيها
تلك الكيانات الأرض وكانت لهم مدن عظمى . وبقايا تلك
المدن موجودة في بعض جزر المحيط الهادى . هم موتى
لكن من الممكن أن يعودوا لو أن النجوم اتخذت موضعاً
مناسباً .

« هؤلاء جاءوا من النجوم .. وجلبوا صورتهم معهم .. »

هم ليسوا من لحم ودم .. لهم أشكال لكنهم غير مكونين من
مادة .. كلهم ينتظرون في مدينتهم العظمى (رليه) بانتظار
التعاويذ التي سيلقيها كاهنهم (كتولو) ..

هم ينتظرون في الظلام ويحلمون ، قتمر عليهم ملايين السنين
لكنهم يعرفون كل ما يدور في الكون لأن طريقة تفاهمهم هي
الأفكار . سوف ينتظرون حتى الوقت المناسب قبل أن ينهضوا ..
هذا الوقت المناسب تسهل معرفته لأن البشر سيكونون وقتها
مثل الآحاد القدامى ، أحراراً لا يبالون بالخير أو الشر وسوف
يتخلصون من الأخلاق ويقتلون بعضهم البعض . وسوف يعظمهم
الآحاد القدامى المزيد من وسائل المتعة حتى تصير الأرض
محرقة من الجنون .

قال إن مركز هذه الديانة هو في صحراء العرب حيث توجد
(إرم) ذات العماد .. وإته لم يرد ذكر لها في أى كتاب ما عدا
كتاب (نيكرونوميكون) الذي كتبه الشاعر المجنون (عبد الله
الحظرد) .

لهذا لنا أن نتخيل دهشة عمى عندما قابل بعد هذا شاباً
حسناً يرى ذات الرؤى التي وصفها (ليجراس) ، واستطاع كذلك
أن يلفظ بشكل صحيح ثلاث كلمات من التي نطق بها الإسكيمو .

برغم كل شيء لم أستبعد أن يكون (ويلكوكس) الشاب قد
سمع عن تلك الطقوس في مكان ما ، من ثم اختلق قصة هذه
الأحلام ليحير عمى .

بدالى هذا هو أقرب الاحتمالات للمنطق . وقرأت بعناية وصف (ليجراس) للقصة . ثم صممت على أن أسافر إلى بروفيدينس لأوجه له التوبيخ الضرورى بسبب خداعه لرجل مسن ومتعلم مثل عمى .

كان ما زال يعيش فى (فلير دى ليس) فى شارع توماس . وهو مكان يقف بشكل قبيح طراز المباني الفكتورية فى القرن السابع عشر .

وجدته يعمل فى غرفته وأدرجت من القطع التى نحتها والمحيطه به أن الفتى موهوب وأصيل . لقد نحت بالصلصال ويوما ما سيفعلها بالرخام تلك الخيالات المفزعة التى خلدها (آرثر ماشن) بالشعر . كان هشا شاحبا وقد سألنى عن سبب قدومى فقلت له من أنا . وقد أثار اسمى اهتمامه ، وبعد قليل من الكلام لم يعد عندى شك فى صدقه . لقد أثرت تلك الأحلام على أعماله النحتية ، وقد عرض على تمثالا ذا منحنيات جعلت الأفكار السود تعمل فى رأسى . لا يذكر متى رأى هذا الشكل ولكنه حاول نقشه على الصلصال أولا وهو يشعر أن هذا هو الشيء الذى كان يراه فى أحلامه .

لم يكن يعرف شيئا عن تلك الديانة الغامضة ، وكان يتكلم عن أحلامه بطريقة شعرية . يصف المدينة ذات النصب الصلابة من الحجر الأخضر ، التى قال إن تصميمها الهندسى خطأ تماما .

راح يردد النداء الذى كان يسمعه :

« كتولو فتاجن .. »

وهو جزء من النداء الموجه لكتولو فى سباته ، مما جعلنى أرجح أن الفتى سمع عن الأسطورة ونساها . لا بد أنه صادق وأن تأثيره على عمى لم يأت بقصد .

ظلت فكرة تلك العبادة تحيرنى وتفتتنى ، وقد زرت لويزيانا وقابلت ليجراس ومن بقى حيا من تلك الغارة القديمة . لقد بدأت أشعر بأننى على طريق كشف مهم .. كشف سرى .. كشف عميق وقديم .. كشف سيجعلنى من علماء الأنثروبولوجى المرموقين .

شيء واحد كنت أخافه هو أن يتضح أن موت عمى لم يكن طبيعيا ، فقد سقط من فوق منحدر بعد ما دفعه بحار زنجى هجين . تذكرت كلام (ليجراس) عن الدم الهجين فى لويزيانا . هل تكون تحريات عمى عن الموضوع قد بلغت آذانا شريرة ؟ اعتقد أن للبروفسور مات لأنه عرف أكثر مما يجب أو لأنه كان فى طريقه ليعرف أكثر مما يجب .

لقد عرفت الكثير وبقى أن أحدد ما إذا كنت ساقضى خطوات عمى أم لا .

3- جنون من البحر ..

لو أرأيت السماء أن تمنحني هدية ، فلتكن هي نسيان الصدفة التي جعلت عيني تقعان على صفحة جريدة . ما كان الأمر ليلفت نظري في العادة ، لكنه كان عددًا من جريدة أسترالية اسمها (نشرة سيدني) عدد 18 إبريل 1925 .

كنت أزور صديقًا مثقفًا في (باترسون نيوجيرسي) ، وهو أمين متحف ومختص بعلم المعادن . كنت أتفحص العينات الموضوعة على الأرفف في المتحف حين وجدت صورة غريبة في جريدة وضعت تحت الحجارة . وكانت الصورة تظهر نصيبًا مخيفًا يشبه ذلك الذي وصفه (ليجراس) .

أخرجت الجريدة بحذر وأقصصت الخبر ، وكان يقول :

العثور على سفينة مهجورة في البحر

وصلت السفينة (فيجالات) وهي تجر يختًا نيوزلنديًا معطلًا ، فاج واحد وجثة على ظهر اليخت . قصة عن صراع الموت في البحر . البحر الناجي يرفض ذكر التفاصيل وإن وجد صمم غريب في هويته .

وصلت السفينة فيجالات إلى دارلنج هاربر وهي تجر اليخت المعطل المدمج بالسلاح (ألبرت) . كانت السفينة فيجالات قد تعرضت بعد إقلاعها لرياح قوية أبعثتها عن مسارها ، وفي 12 إبريل شوهد اليخت المهجور ، وتبين أن على ظهره رجلًا فقد الوعي وجثة رجل آخر يبدو أن أسبوعًا مر على وفاته . كان الرجل الحي يحمل صنمًا غريب الشكل اعترفت الجهات العلمية في جامعة سيدني بأنها لا تملك فكرة عنه .

لما التقى الرجل حكى قصة غريبة عن القراصنة . اسمه جوستاف يوهانسن . فروعجي . كان المساعد الثاني على ظهر السفينة ذات الشراعين (إيمبا) التي أقيمت في 20 فبراير وعلى ظهرها 11 رجلًا . قال إنهم قابلوا اليخت (ألبرت) بقوده طاقم غريب شرير الشكل من كنساس . وقد أصطروا لهم الأمر بالتراجع فرفضوا . بدأ الطاقم يطلق الرصاص على بحارة (إيمبا) فرد طاقم السفينة . لكن بحارة اليخت نجحوا في أن يعتلوا السفينة التي أوشكت على تغرق بفعل ما أصابها من مدافع دارت معركة عنيفة وفي النهاية قتل ثلاثة من بحارة (إيمبا) ، لكن الباقين تمكنوا من النجاة بقيادة (يوهانسن) نفسه الذي اضطر لركوب اليخت بعد إصلاحه . تمكنوا في 23 مارس من بلوغ جزيرة بشكل ما ، ثم ملت سعة رجل على الشط . فر يوهانسن ورجل آخر على ظهر اليخت في 2 إبريل لكن لرياح غلبيتهم وتنازلتهم ، ومنذ ذلك الحين حتى إنفاقه لا يذكر الرجل ما حدث له على الإطلاق ..

كان البحارة يعرفون اليخت (ألبرت) جيدًا بطاقمه الشرير ، كما أن الأدميرالية اطرت يوهانسن وبراعته كثيرًا ، وأعلنت أنها ستحاول إجراء تحقيق شامل حول ما حدث .

انتهى الخبر لكن أية أفكار جلبها لى ..! إن التواريخ أبعد من أن تكون صدفة .. كل هذه الأحداث تدور فى ذات الوقت عبر العالم .. وماذا عن عاصفة 2 إبريل ..؟ نفس التاريخ الذى توقفت فيه أحلام الحالمين وأفاق (ويلكوكس) من قيود الحمى ..؟

سافرت إلى سيدنى وأجريت تحقيقات لا نفع منها مع البحارة فى الأدميرالية ، ورأيت اليخت (أليوت) الذى تم إصلاحه ويستخدم فى الملاحة التجارية .

رأيت ذلك التمثال الغريب فى متحف التاريخ الطبيعى ، وقال لى أمين المتحف إن الجيولوجيين وجدوا فيه لغزاً بلا حل .. فهم متأكدون من أن العالم لا يحوى صخوراً من هذا النوع . تذكرت ما قاله (كاسترو) العجوز للمفتش (ليجراس) :

« هؤلاء جاءوا من النجوم .. وجلبوا صورتهم معهم .. »

قررت أن أقصد أوسلو لأزور (يوهانسن) مساعد السفينة (إما) .. هكذا أبحرت إلى لندن ثم تطلعت مباشرة إلى النرويج ..

وفى يوم خريف تجهت لبيت لرجل ، وكان فى المدينة القديمة للملك (هارولد هاردادا) الذى حفظ للمدينة اسم (أوسلو) برغم أنها كانت تحمل اسم (كريستينا) طيلة الحروب الصليبية .

طرفت الباب فبرزت لى امرأة ذات وجه حزين وثوب أسود . وتصلبت مصعوقاً عندما أخبرتنى أن (يوهانسن) لم يعد على وجه الأرض .

قالت المرأة إنه لم يش طويلاً بعد عوبته لأن أهوال البحر حطمته . كان يمشى على مرفأ جوتنبرج عندما سقطت فوقه حزمتان من الصحف من صندرة بيت .. ساعده بحاران على النهوض لكن قبل أن تبلغه عربة الإسعاف كان قد مات . لم ير الأطباء سبباً لوفاة وقدروا أن قلبه الضعيف هو السبب .

شعرت بذعر .. هذا الرعب لن يفارقنى إلى أن أموت أنا فى حادث أو بأى شكل آخر .

كان الرجل قد ترك لزوجته بعض الأوراق المكتوبة بالإنجليزية ، وقد سمحت لى بأن أخذها معى لأنها لا تهتم لما فيها . هكذا استطعت قراءة الأوراق وأنا على السفينة عائداً إلى لندن .

كانت مذكرات بحار يصف تفاصيل رحلته . هى مليئة بتفاصيل لا داعى لها لذا سأحاول أن أخصها لك فقد تفسر لماذا لم أعد أطيع صوت الماء وهو يضرب جانبى السفينة ، حتى إننى سددت أنفى بالنفط .

لم يعرف (يوهانسن) كل شيء ، لكننى لا أستطيع النوم بسهولة ثانية وأنا أعرف الأموال التى نجهل عنها كل شيء . وتلك الكائنات المخيفة التى تعلم تحت البحر ، بينما عدد من الأنواع ينتظرون أية فرصة ليحرروها مع أول هزة أرضية تالية ، كى تتحرر من جديد وتخرج للشمس والهواء .

لقد غادر (يوهانسن) على السفينة (إلبا) فى 20 فبراير . وقد شعر بالقوة الكاملة لذلك الزلزال الذى حرك قاع المحيط ذاته . مضت السفينة بعد هذا حتى قابل اليخت (ألبرت) فى 22 مارس وحدثت تلك المعركة البعد اليخت وعليه (يوهانسن) ورجاله كما قالت الصحيفة ، إلى أن رأوا عموداً صخرياً يبرز من البحر عند خط عرض $47^{\circ}9'$ وخط طول $123^{\circ}43'$. هنا وجدوا أنفسهم أمام بقايا المدينة الكابوسية المسماة (رليه) . المدينة التى بنتها منذ زمن سحيق تلك الكائنات المرعبة التى جاءت من النجوم .

هناك كان (كتولو) وعشيرته يرقدون فى قباب طينية خضراء عملاقة يعيشون بلا توقف تلك الصور التى صارت أحلام الأشخاص الحساسين ، ويطلبون المخلصين لهم كى يأتوا .

لم ير (يوهانسن) هذا كله لكنه رأى ما يكفى !..

لا بد أن الذهول أصابه ورفاقه وخمنوا أن هذا المشهد لا يمت بالتفصيل إنما يعبر للعالم الحالى . عندما يصف يوهانسن المدينة فى لورقه فهو لا يصفها عن انطباع عام لصخور عملاقة .. عملاقة بحيث لا تنتمى لشيء يمت لهذا العالم . عليها نقوش مفزعة وكتابة هيروغليفيه . علق الرجل كذلك على الزوايا الغربية للمبلى وهو يكرنى بما قلله (ويلكوكس) عن هندسة هذا المكان وكيف أنها لا تمت للهندسة الإقليدية Euclidean التى نعرفها .

لقد هبط يوهانسن ورجاله على ضفة موحلة من تلك المدينة وتسلقوا فوق صخور لا يمكن أن تكون درجات سلم تمت لعالمنا الفانى . كانت الشمس تبدو مشوهة عندما تراها عبر البخار المتصاعد من هذا الهول المبطل . النظرة الثانية تجطك ترى أشكالاً محدبة بعد ما كنت تراها مقعرة .

شعر الرجال برعب هائل برغم أنهم لم يروا سوى صخور وحجارة . وكان كل منهم موشكاً على الفرار لولا خشيته من مخربة رفاقه .. وكتوا يفتشون عن شيء قابل لحمله كذكرى يحملونها للوطن . كان البرتغالى (رودريجز) هو من تسلى قمة البناء وهتف يناديهم كى يروا ما رآه . هرعوا يرون فرأوا الباب الصلاق وعليه نقش الكتان الأخطبوطى الذى ألفوه . عرفوا أنه باب من عتبته ومن عارضته العليا ولكنهم لم يعرفوا هل هو

بالعرض أم مائل .. هندسة المكان كلها كانت خطأ .. لا يمكن أن تعرف إن كانت الأرض أفقية أم لا ..

تحسس الرجال الباب بحثاً عن طريقة لفتحه ، ثم تسلقوه .. فجأة وببطء شديد بدأت العتبة تنفتح . كان هذا الشيء يدور باتجاه منحرف متحدياً كل قوانين المادة والجاذبية .

كانت الفتحة سوداء خلفها ظلمة توشك أن تلمسها . بالفعل كانت كذلك لأنها أخفت أجزاء داخلية من الباب كان يجب أن تكون مرئية في الواقع خرجت الظلمة من محبسها وأظلمت السماء لأنها حلفت بجناحين غشائيين .

كانت الرائحة المنبعثة من هذه الفتحة لا تطاق . وأحسن (هوكنز) ذو الأثنين الحساسين بأنه يسمع شيئاً كريهاً ينزلق تحت . وقف الجميع يصفون .. ظلوا يصفون عندما ظهر الشيء وحشر كياته الهائل الجيلاتيني الأخضر عبر الفتحة ليخرج إلى هواء المدينة .

هنا تخلت عن (يوهاتسن) قدرته على الكتابة ..

يعتقد أن رجلين من رجاله هنا بفعل الذعر في هذه اللحظة . لا يمكن وصف الشيء .. لا توجد لغة قادرة على وصف هذا الجنون . هذه هي اللحظة ذاتها التي أصيب فيها (ويلكوكس)

بالحمى وانتحر مهندس معروف . لقد نهض الكيان القديم لينال حقه ، وما فشل فيه أتباع هذه الديانة على مدى قرون ، نجحت فيه مجموعة من البحارة التصيين صدفه .

قبل أن يفر أحد سقط ثلاثة رجال وقد مستهم الممسكات المخيفة . ووجد يوهاتسن نفسه محشوراً في أحد زوايا البناء .. زاوية بدت لعينة حادة لكنها كانت منقرجة من الداخل .

تحرر وجرى مع صاحبه (بريدن) نحو اليخت ..

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق كي يتحرك اليخت (ألبرت) مبتعداً عن تلك المياه اللعينة .

لكن كتولو المرعب تقدم نحو الضفة وانزلق في الماء وراح يسبح نحوهما بضربات ترفع الأمواج بقوة كونية . ظل (بريدن) يرمق المشهد ويضحك . وظل يضحك ويضحك حتى مات ذات ليلة في القمرة ، أما (يوهاتسن) فبدأ يهذى . لكنه تماسك لأنه أدرك أن بوسع الشيء الذي سد الطريق أن يلتهم اليخت (ألبرت) في أية لحظة ، لذا زاد سرعة المحرك ثم جرى على السطح وعكس وضع عجلة القيادة ..

دوى صوت مخيف وتصاعدت الفقائيع وتزايد البخار الخارج من المحرك . واندفع النرويجي الشجاع نحو كتلة الهلام العملاقة التي ارتفعت فوق الفقائيع .

أقرب الرأس المخيف جداً لكن (يوهتسن) واصل الاندفاع نحوه .
رائحة عفنة كأنه ألف قبر مفتوح .. ضوضاء لا يقدر أحد على
تسجيلها على الورق .

وللحظة غاب اليخت في سحابة خضراء عفنة الرائحة ، ثم
اخترق اليخت الشيء للكربة .. وهنا راح نك الشيء يلتحم ثنية
كأنه غلر سنام ..

لكنه كان يتعد .. في كل ثنية كانت للمصافة تتزايد بينما
اليخت يظفر بمزيد من المصرة .

هنا فقط استطاع يوهتسن أن ينزل إلى قاع اليخت ليظفر بشيء
من طعام له وذلك المجنون الذي لا يكف عن الضحك جواره .

ثم جاءت عاصفة الثاني من إيريل فلم يعد يذكر أي شيء .

كأنه كان يبحر في دوامات حول خلجان اللاهتية الذائبة ،
ويرحل عبر المجرات متعلقاً بذيول الشهب .. وثبات جنونية من
القاع إلى القمر ومن القمر للقاع ثنية ..

لا يعرف متى ولا كيف جاءت سفينة (هيجيلات) لتتقذه .

لم يكتب ما رآه ولم يصفه حتى لا يحسبوه مجنوناً . فقط قرر
أن يكتب لما شعر بقرب موته . الموت سيكون شيئاً رائعاً لو
كان بوسعه محو التكريكات .

هذا هو ما كتبه وقد وضعت الأوراق جوار مذكرات عمى
ونك التفتش . لن أقدر على النظر إلى الكون بالطريقة ذاتها
ثنية ، وحتى سماء الربيع وشمس الصيف سوف تكون أقرب
إلى العمى بالنسبة لي .

لا أحسب حيتي ستكون طويلة ؛ لأنني سأرحل كما رحل عمى
الممكن وكما رحل (يوهتسن) . إن الأكباع أحياء وكذلك كتولو ..
لقد عادت مدينته اللعينة للغوص تحت البحر لأن (هيجيلات) عبرت
تلك البقعة مرة أخرى فلم تر شيئاً .. لابد أنه فوجئ بأنه يغوص
ثنية ، وإلا لكان للعالم يصرخ اليوم من الرعب والجنون .

من يعرف التهلية ؟ .. ما طفا قد يغوص وما غاص قد يطفو ..

البشاعة تنتظر وتحلم في الأعماق بينما العطب يزحف على
مدن البشر . سوف يأتي وقت (كتولو) لكن ليس بوسعي
ولا يجب أن أفكر في الأمر .

أدعو الله لو لم أعش طويلاً ، إن يتأكد من يعدمونني من أن
هذه المسطور لن تراها عين بشرية أخرى .

موديل بيكمان

لا حاجة بك لأن تفترض في الجنون يا (إليوت) ، فالكثير ممن
سواي لديهم ميول أغرب من هذا ، لم لا تسخر من جد (أوليفر)
الذى لا يركب سيارة أبداً ؟ .. لو كنت لا أحب هذا النفق اللعين فهذا
شأنى . لقد وصلنا على كل حال بسرعة راكبين عربة آجرة ،
ولو أخذنا السيارة لكان علينا أن نتسلق التل من برك ستريت .

أعرف لئن أكثر عصبية مما كنت عندما رأيتنى العام الماضى ،
لكن لا يجب أن تطلب رأى الأطباء . هناك سبب قوى وإتنى
لأحمد الله على أنى ما زلت محتفظاً بعقلى بعد هذا كله . لم نركب
فى الدرجة الثالثة ؟ .. لم يكن الفضول من دأبك فيما سبق .

حسن .. لو كان ينبغي أن تعرف القصة فلا أرى سبباً يمنع
ذلك . ربما وجب هذا لأنك تكتب لى كأنك أب قلبى منذ عرفت
أننى قاطعت نادى الفنون وقررت الابتعاد عن بيكمان . الآن وقد
اختفى الرجل صرت أتردد على نادى الفنون لكن ليس بكثرة لأن
أعصابى لم تعد كما كانت ..

لا .. لا أعرف ما حل بيكمان ولا أريد أن أخمن . لا بد أنك
خدمت أن لدى أسباباً دفعتنى للتخلى عنه ، لهذا لا أريد أن أفكر
فى المكان الذى ذهب له . دع رجال الشرطة يعرفوا ذلك ، فهم
لا يعرفون مثلاً بالمكان الشمالى فى (نورث اند) الذى استأجره
بيكمان باسم (بيترز) .

لا أعتقد أنني قادر على العثور عليه ثانية ، دعك من أنى
لا أريد ذلك حتى فى ضوء النهار .

أخشى أنني أعرف لماذا أحفظ بهذا سرًا ، ولمسوف أتى لهذه
النقطة . سوف تفهم عندما أنتهى لماذا لم أبلغ الشرطة . لا أستطيع
العودة هناك حتى لو كنت أعرف الطريق . لم أعد قادرًا على
اجتياز الأنفاق أو النزول لأى قبو وأعرف أن هذا يثير ضحكك .

لنا أعرف أن بيكمان كان موهوبًا وعبقريًا لهذا القبل أى اتجاه
يتخذه فى عمله ، ورأيت أن بوسطن لم تعرف فنًا أفضل من
(ريتشارد أبتون بيكمان) . لم يتغير رأيى لحظة حتى عندما
رأيت لوحة (غول يأكل) التى جعلت (مينوت) يقاطعه .

كما تعرف بحتاج المرء لموهبة عظيمة كى يخرج أعمالاً كالتي
يقدمها بيكمان . كل رسام لأغلفة المجلات يمكن أن ينثر بعض الألوان
ويسمىها (ليلة السباث) أو (كابوس) لكنك تحتاج للفنان حقيقى كى
تقدم لوحة مرعبة عن موضوع كهذا ؛ فالفنان الحقيقى هو من يعرف
تسريح الخوف أو فسيولوجية الهلع . يعرف خلطة الظلال والخطوط
والإضاءة التى تثير تلك الإحساس للنائم فينا بالغريبة . لهذا تبعت
لوحات (فيوسيلى Fuseli) " القشعريرة فيك . كذلك (أنجارولا
Angarola) الأمريكى لمتك تلك الموهبة . ترى ماذا يراه هؤلاء
ويرسمونه ؟ .. لكن دعنا نشرب ونتكلم عن شيء آخر ..

(*) فنان بريطانى موهوب المولد تخصص فى رسم الرعب وهو صاحب لوحة
(الجاثوم) الشهيرة ..

تعرف أن نقطة قوة بيكمان كانت الوجوه .. منذ عصر
(جويا Goya) لم أر فنًا رسم الجحيم ذاته على الوجوه .. قبل
(جويا) عليك أن تبحث عن فناني القرون الوسطى الذين نحتوا
للكرجل Gargoyles على كنيسة النوتردام . لقد صدقوا أشياء
كثيرة وربما رأوا أشياء كثيرة كذلك ..

أنت سألت بيكمان عن مصدر رسومه فضحك .. تلك الضحكة
للكريهة التى لفزعت (ريد) وجعلته يقطع بيكمان . ريد كان
مولفًا بدراسة علم الأمراض ، وقد قال لنا إن بيكمان يثير نفوره
بل ورعبه . قال إن ملامحه تتغير يومًا بعد يوم حتى إنه ليبدو
لحيتًا غير آدمى .

لكن تذكر أنى لم أتخل عن بيكمان لسبب كهذا ، بل لزداد
إعجابى به ، لأن لوحة (غول يأكل) كانت مذهلة . لم يقبل
النلادى عرضها كما لم يقبلها متحف الفنون الرفيعة كهدية . لم
يشتريها أحد فظلت فى بيت بيكمان . هى الآن فى بيت أبيه فى
(سالم) .. تعرف أن بيكمان من (سالم) وله جد شقيق هناك
بتهمة السحر عام 1692 .

لقد رأيت لوحاته فتبهرت بها ، ولم يمر وقت طويل حتى
صرت من المخلصين له . بدأ يثنى فى أكثر فأكثر ، فلمح لى ذات
ليلة أنني لو أغلقت فمى وتماسكت ، فهو سوف يرينى شيئًا غير
معتاد .. شيئًا يفوق كل ما رأيته حتى هذه اللحظة .

قال لى فى حماس :

- « هل تعرف أنه كانت هناك طاحونة على تلة (كوب) عام 1632 ..؟ هل تعرف أن نصف الشوارع في (نورث اند) خططت عام 1650 ..؟ يمكنني أن أريك بيوتاً صمدت قرنين أو أكثر .. ما الذي يعرفه المعاصرون عن الحياة والقوى الكامنة خلفها ..؟ ماذا تعرف عن سحرة (سالم) ..؟ جدى كان بوسعه أن يخبرك بالكثير ، فقد شنق بينما (ماتر) اللعين " يراقب المشهد لأنه كان مذعوراً من أن يحدث شيء يغير إيقاع الحياة الرتيب .. ألا لعنة الله عليه !. ليت أحدهم امتص دمه ليلاً ..

« يمكنني أن أريك البيت الذي عاش فيه ، كما يمكنني أن أريك بيوتاً كان يخشى أن يدخلها برغم ادعائه الشجاعة .. كان يعرف أشياء .. هل تعرف أن (نورث اند) كان يحوى ثقباً تصل بيوت الناس ببعضها وتصلهم بالمقبرة والبحر ..؟ كانوا يسمعون لصوت لا يعرفون مصدرها طيلة الليل .. يمكنني أن أريك شيئاً غريباً في قبو ثمانية بيوت من كل عشرة من البيوت التي بنيت قبل عام 1700 . كانت هناك ساحرات مع كل ما تسدعيه طقوسهن لسحرية .. كان هناك قراصنة مع كل ما جلبوه من البحر .. مهربون .. للناس كانوا يعرفون كيف يعيشون في تلك الأرملة ! .. قارن بين هؤلاء وعقول اليوم الوردية المترهلة التي تهز أكتافها في استنكار لورأت لوحة يخرج موضوعها عن منضدة شاي !

(*) كوتن ماثر Mather شخصية أمريكية حقيقية شهيرة جداً تخصص في محاكمة الساحرات وإعدامهن وله عدة كتب عن السحر .

- « المزية الوحيدة للحاضر هي أنه غبي بحيث لا يفكر كثيراً في الماضي . بم تخبرك للخرقطة ولحلة السياح ؟ .. لا شيء .. يمكنني أن أريك أزقة وممرات لا يشك في وجودها أحد من الأحياء .. وما من أحد يمكنه الانتفاع من هذه المعرفة .. لا .. هناك واحد يمكنه الانتفاع ، فأننا لم أجر هذا التنقيب بلا مقابل .

- « هل تعرف يا (ثيرير) أن لدى مرسماً آخر هناك ، حيث يكون بوسعي أن أرسم الكوابيس مباشرة ؟ .. بالطبع لا أخبر بهذا أحداً من هؤلاء العجزة في النادي ، و(ريد) اللعين يهمس في كل مكان أنني وحش يهوى لأسفل في منحدر الارتقاء . لقد أزمعت منذ زمن أن أرسم الرعب كما نرسم الحياة من الحياة ذاتها .. لذا بحثت حيث يوجد الرعب ..

- « أعرف مكاناً أشك في أن ثلاثة رجال أحياء يعرفون عنه أي شيء .. إن عمره قرون ، وقد استأجرته من أجل بئر من القرميد في القبو .. هذا الكوخ يتهاوى لذا لم يعد أحد يعيش هناك وأكره أن أخبرك بضالة المبلغ الذي أدفعه . أرسم في القبو حيث الإلهام الكثيف لكني استأجرت غرفاً أخرى في الطابق الأرضي ، وقد استخدمت اسماً مستعاراً هو (بيتر) .

- « لو أردت سأخذك هناك الليلة .. سوف تحب الرسوم .. أنا أذهب هناك على القدمين لأنني لا أريد لفت الأنظار بسيارة

أجرة في مكان كهذا . سوف نستقل عربة من (ساوث ستيشن)
فأصلين باترى ستريت ، ومن هناك لن تكون للمسافة بعيدة . »

حسن يا إليوت . لم يكن هناك لكثير مما فعله بعد هذه الخطبة
البليغة ، سوى أن أمنع نفسي من الفرار بدلاً من ركوب أول
عربة أجرة وجدناها . سرعان ما وصلنا لشارع بلتري ومضينا
جوار الميناء القديم . لا أنكر الشوارع بدقة ولا أنكر أية تقاطعات
اتخذناها لكنه لم يكن زقاق (جريناف) على كل حال .

كان علينا أن نرتقى أقدم وأقذر زقاق رأيت في حياتي ، بنوافذ
صغيرة مهشمة ومداخل شبه بالية تقف متهاكة أمام السماء
التي ينيرها القمر . لا أعتقد أن هناك أي بيت لم يكن موجوداً في
عصر (كوتن ماثر) .

من هذا الزقاق دلفنا إلى اليسار حيث زقاق مماثل صامت
وضيق بلا ضوء على الإطلاق . ثم كان ينحرف بزواوية منفرجة
إلى اليمين . أخرج مصباحاً سلطه على باب متهاك يعود لعصر
الطوفان . ثم دخلنا إلى ممر يبطنه خشب البانوط .. بسيط لكنه
يوحي لك فعلاً بعصور السحر الأولى . أخيراً أوقد مصباحاً من
الزيت وطلب مني أن آخذ راحتى .

حسن يا إليوت .. أنا رجل شديد المراس كما يقولون لكن
أعترف أن ما رأيته على جدران هذه الغرفة قد أفرغني . إنها
لوحتة التي لم يكن بجسر على عرضها في شارع (نيوبيري) ..
كان محطاً عندما قل إنه أخذ راحته .. خذ كلساً فلنا بحاجة لواحد !

لا جدوى من أن لصفها لك لأن قرعب الشنيع للكفر والبشاعة
للمستعصية على التصديق بآتيان من لمعات تفوق قدرة الكلمات
على التصنيف . لم تكن هناك تعقيدات ولا خلفيات متحلقة .
للخلفيات كانت ساحات كنائس قديمة وغابات وصخوراً على
البحر وأنفاقاً .. مقبرة هضبة (كوب) القريبة من هذا الموضع .

لقرعب الحقيقي كان يأتي من الأشكال الأمامية في الصور لأن
براعته الأساسية كانت في البورتريهات الشيطانية . لم تكن
وجوه بشر بالضبط .. كانت كائنات تمشي على قدمين ومنحنية
للأمام ولها طابع عام كلبى . كل هذه الكائنات كانت تأكل ..
لا تسألني تأكل ماذا ..

كانوا يظهرون كمجموعات في المقابر وتحت الأرض أو
متصارعين على الفرائس .. أحياناً تراهم يشبون من نوافذ
مفتوحة ليلاً ، أو يقعون على صدور النيام .. هناك لوحة
تظهرهم يلتفون حول ساحرة مشنوقة وجهها يشبه وجوههم .

إنها حية !.. صدقتنى فلست صبيًا فى الثالثة . هذا الساحر
الملعون قد أيقظ الشياطين على القماش وفرشاته كانت عصا
سحرية . ناولنى هذا الإناء يا إليوت !

كانت هناك لوحة اسمها (الدرس) . فليرحمنى الله !..
تصور مجموعة من هذه الكائنات الكنبية تحيط بطفل ليلاً وتعلمه
كيف يأكل مثلها !.. هنا بدأت أفهم . هناك ارتباط بين وجوه
الأطفال ووجوه هذه الكائنات الكنبية . لقد رسم بيكمان حلقة
الوصل .. هذه الكائنات كانت بشرًا قبل هذا !

استبدال الأطفال هل تذكر الأسطورة التى تقول إن الأشجار
يسرقون الأطفال الرضع ويضعون بذرتهم مكانهم فى المهد ؟..

ثم إنه حمل المصباح واقتادنى إلى غرفة أخرى ، وقد سره
الفرع الذى بدأ يظهر على . فى الغرفة الثانية كانت لوحات أكثر
إرعابًا ... هناك لوحة تظهر مجموعة من تلك الكائنات تسللت
عبر مقبرة تحت الأرض إلى نفق (سابينون ستريت) لتهاجم
الناس الواقفين على الرصيف بانتظار المترو . هناك عدة لوحات
لكائنات من هذه وقد تسللت إلى قبو ، وهى تنتظر فى ركن مظلم
أولئك الذين سينزلون الدرجات إلى ذلك القبو .

هناك رسم أثار ذعري بالذات وهو مجموعة من المسوخ
تحيط بأحدها فى قبو تحت الأرض ، وهو يمسك بدليل سياحى
لبوسطن فى يده ويقرأ بصوت عال . كانوا يضحكون بوحشية
حتى إتنى كدت أسمع ضحكاتهم .

كنت أشعر بفزع من بيكمان ، فلا بد أن الرجل تجرد من كل
عطف أو حب للبشر حتى يروق له أن يرسم كل هذا التعذيب
والرعب . ثم إتنى كنت خائفًا من روعة الأعمال .. هذه ليست
رسومًا تمثل الشياطين بل هى الشياطين ذاتها .. والغريب أن
الرجل لم يستخدم أساليب الغموض والإيحاء بل كان كل شيء
واضحًا محددًا . لم يحاول أن يرينا ضبابية الأحلام بل جعل كل
شيء واقعيًا دقيقًا ..

شيء واحد كن مؤكدًا .. بيكمان كن بكل معنى الكلمة واقعيًا
دقيقًا علميًا ..

كان الآن يقتادنى لمرسمه ذاته وقد هبطنا لأسفل الدرجات
الرطبة . أشار بالكشاف إلى فتحة فى الأرض وقال لى إن هذه
تقود إلى ما كان يحكى عنه .. شبكة الأنفاق تحت الأرض .

نظرت للبئر ورحت أفكر فى الأحوال التى قد كانت تحويها ،
وارتجفت .

كانت الغرفة مضاءة بمصباح من غار الأسيتيلين ، وكانت اللوحات التي لم تنته بعد معلقة على الجدار مرعبة كمثيلاتها المكتملات . كانت مرسومة بعناية رهيبة .. للرجل كان عظيمًا وأنا أقولها من جديد . فقط لاحظت كاميرا كبيرة على المنضدة فأخبرني أنه يصور بها الخلفيات التي يتخذها لرسومه .

ثم لزاح الستار عن لوحة جعلتني أطلق صرخة رعب .. الصرخة الثانية لي هذه الليلة . فقد كانت تظهر كيتًا جبارًا لا اسم له ، وله عريان حمراوان تلمعان ، وكان يمسك بيد مخلبية بقايا رجل وهو يقضم رأسه كما يقضم الطفل قطعة حلوى . كان يجلس القرفصاء لكن كلما أمعنت النظر شعرت بأنه سوف يتخلى عن فريسته بحثًا عن فريسة أكثر سامة . لكن لم تكن بشاعته ولا التفاصيل هي ما سبب ذعري .. لم تكن هي بالشئ الذي يدفع رجلاً مذعورًا للجنون .

كانت التقية .. التقية غير الطبيعية يا إليوت .. لم أر في حياتي قط الحياة ذاتها وقد ذابت على قماش الرسم . المسخ كان هناك وكان يمضغ ويمضغ .. أعرف أن قواطين الطبيعة تجعل من المستحيل أن يرسم إنسان شيئًا كهذا من دون موديل . من دون لمحة لعالم سفلى لم يظفر بها أي بشرى لم يبع نفسه للشيطان .

كانت هناك قطعة ورقية مثبتة بدبوس ضغط لجزء خال من القماش ، وكانت مجعدة .. خطر لي أنها صورة فوتوغرافية للخلفية التي رسم بيكمان اللوحة عليها . مدت يدي لها فتصلب بيكمان كأنه ضرب بالرصاص . كان يصغي لأصدا صرختي ، لكنه الآن لتنفض تحت تأثير رعب جارف وأخرج مسدسًا وأمرني بالصمت ، ثم خرج إلى القبو للرئيس وأغلق الباب خلفه .

أحسبني أصبت بالشلل للحظة . جربت أن أصغي مثله فسمعت صوت شيء ينسل في مكان ما مع صرخات حادة لم أعرف اتجاهها . ثم جاءت قرعات جعلت جلدي يصير جلد إوزة .. فقعدة مختلصة لا أعرف كيف أعبر عنها .. كأنها خشب ثقيل يسقط على حجر . خشب على حجر .. ماذا جعلني هذا أفكر فيه ؟

عاد الصوت أعلى .. ثم دوت ضوضاء وصراخ مختلط من بيكمان .. ثم الصوت الذي يصم الأذان لدوى الرصاصات الست من مسدسه . كان يطلق كأنه مروض أسود يطلق الرصاص في الهواء للتخويف .

من جنيد الدوى .. ثم صوت باب يفتح ..

ظهر بيكمان على الباب والدخان يخرج من فوهة مسدسه وهو يشتد الفئران التي تعمر الجدران للعتيقة .

- « لا أعرف ما تأكله الفئران يا ثيربر .. هذه الأنفاق تصل للمقبرة وعرين الساحرات .. لكن صراخك أزعجها ، ولكن كن حذراً فى هذه الأماكن العتيقة .. برغم أننى أعتقد أن هذه الفئران مهمة لصلى من حيث الجو واللون ..

- « كانت هذه يا إليوت نهاية مغامرة الليل . لقد وعد بأن يرينى المكان وقد فعل ذلك ..

اقتلانى عبر شبكة المرات فى اتجاه آخر لأننا حين خرجنا كنا فى شارع نصف مألوف تحيط به بيوت عتيقة . هذا شارع (تشارتر) لكننى كنت مرتبكاً فلم أدر متى بلغناه . عدنا للمدينة عبر شارع (هانوفر) وتركنى بيكمان عند ركن (جوى) ولم أتكلم معه ثانية بعد ذلك ..

لم تخلت عنه ؟ .. لا تفقد صبرك .. انتظر حتى أطلب القهوة ..

لم تكن الرسوم هى السبب .. برغم أنها كانت كافية لجعله منبوذاً فى تسعة أعشار بيوت بوسطن .. أعتقد أنك تفهم الآن لماذا أكره الأنفاق والأقبية .. كان هذا شيئاً وجدته فى جيبي فى الصباح التالى . الورقة المجددة التى وجدتها على قماش اللوحة فى القبو . الورقة التى يبدو أننى دسستها لا شعورياً فى جيبي .. هذه هى القهوة .. خذها سوداء بلا سكر يا إليوت .. صدقتى ..

هذه الورقة هى سبب مقاطعتى لبيكمان أعظم فنان عرفته . أشركيان عبر من حدود الحياة إلى حفر الأسطورة والجنون . يريد كان على حق .. لابد أن بيكمان وجد طريقة يفتح بها البوابة المحرمة . لا فارق لأنه عاد إلى الظلمات التى يحبها ..

فلنشعل الشمعدان ..

لا تسألنى عن الشيء الذى أحرقتة .. لا تسألنى عن سبب هذه الأصوات التى زعم بيكمان أنها فئران . هناك أسرار تعود لماضى (سالم) وقد حكى (ماثر) عن الكثير . كنا نتساعل عن تلك الوجوه التى رسمها بيكمان فى لوحاته .

لم تكن تلك الورقة صورة تستعمل كخلفية للمشهد ، بل كانت تظهر ذلك المسخ الشيطانى الذى رسمه على القماش .. كان هذا هو الموديل الذى استعمله وكانت خلفية الصورة هى المرسوم الذى كنت فيه ..

لقد كانت صورة فوتوغرافية حقيقية يا إليوت !

بحث إيرانون

في مدينة (تيلوث) الجراتية يمشى للشباب وقد توج رأسه بالكرم ، وشعره الأصفر يتمتع بنبات المر ، وقد تمزق رداؤه الأرجواني من أشواك نبات (السيراك) المزروع عبر الجسر الحجري العتيق . رجال (تيلوث) علبسون سمر البشرة يعيشون في بيوت معبأة ، وقد سألوا القريب من أين جاء وما اسمه ووجهته ، فأجاب الشاب :

- « أنا (إيرانون) .. جئت من (إيرا) وهي مدينة نائية أنكرها بصعوبة لكنني أريد أن أجدها ثانية . أنا أغنى الأغنياء التي تعلمتها في المدينة البعيدة .. ثروتني هي الذكريات والأحلام التي أغنى لها في الحقائق ، حين يكون القمر حائياً وريح الشمال تداعب براعم اللوتس ..

- « عندما سمع رجال (تيلوث) هذا تهامسوا : لأن أهل المدينة صارمون لا يضحكون ولا يقنون ، لكنهم أحياناً ينظرون لجبال (كارثيا) في الربيع ويفكرون في معارف (أوناي) التي حكى عنها المسافرين . هكذا سمحوا للغريب بالبقاء والبقاء أمام برج (ملين) برغم أنهم لم يحبوا لون ثيابه ولا الشباب في صوته الذهبي .

في السماء كان (إيرانون) يقف .. فقال رجل كفيف به رأى هالة فوق رأس القمقي . لكن معظم قوم (تيلوث) تشاءبوا وبعضهم نام لأن إيرانون لم يقل شيئاً مهماً سوى لقاء لذكريته وأحلامه .

- « إيرا .. يا مدينة الرخام والفيروز .. ما أكثر محاسنك ! ..
لكم أحببت إليك في (نيثرا) وشلالات (كرا) التي تجري عبر
الوادي الأخضر ! .. في تلك الرياض كان الصبية يصنعون الأكليل
لبعضهم ، وعند الصق حلت بحلم غريب تحت شجرة (إلباث)
عندما رأيت تحت أضواء المدينة ، و (نثرا) يتلوى ليعكس
شريطاً من النجوم ..

- « في المدينة كنت قصور من الرخام لها قباب ذهبية وجدران
منقوشة وحدائق خضر ونوافير بلورية . كم نمت وحلمت بين
الأزهار الشاحبة تحت الأشجار ، وأحياناً كنت أتسلى إلى القلعة
وأنظر إلى إيرا تحتي .. مدينة الرخام والفيروز السحرية في
ثوب من الذهب الذهبي ..

- « لكم أفنقك يا إيرا ! .. كنت صغيراً عندما ذهبنا إلى المنفى ،
لكن أبى كان ملكك ولسوف أعود لك ثانية .. بحثت عنك في سبع
أراضين ويوما ما سأحكم رياضك وحدائقك وشوارعك وقصورك ..
ولسوف أغنى للرجال الذين يعرفون عن أي شيء أغنى .. أنا
إيراتون أميرا إيرا ..

- « في هذه الليلة جعله الرجال بيت في الإسطبل ، وفي الصباح
جاءه الحاكم وقال له إن عليه أن يذهب لأزوك الإسكافي ليعمل
عنده ..

- « لكنني إيراتون المنفى .. لا أجيد مهنة الإسكافي .. »

- « الكل في تيلوث يكذب .. هذا هو القانون .. »

قال إيراتون :

- « ولماذا يجب أن تكذبوا ؟ .. ألا يمكنكم أن تعيشوا حياة سعيدة ؟ ..
تكذبون لتحياوا لكن أليست الحياة هي الجمال والقضاء ؟ .. متى
تجنون ثمار كدحكم ؟ .. الكد بلا أغان كرحلة طويلة بلا نهاية ..
ليس للموت أكثر مسرة ؟ .. »

لكن الحاكم كان متجهماً ولم يفهم ما قيل .

- « أنت شاب غريب وأنا لا أحب صوتك ولا شكك .. ما تقوله
كفر لأن آلهة تيلوث قالت إن الكد طيب .. اذهب إلى (أزوك)
الإسكافي أو غادر المدينة قبل الغروب .. »

هكذا مشى للفتى بين قبيوت الحجرية الكنيسة يتمنى لو رأى شيئاً
واحداً أخضر .. لم ير سوى العيوس ، لكنه جوار نهر (زورو)
لراكد رأى صبياً يتأمل الماء بعينين حزينتين ، وقال له :

- « هل أنت ذلك الذي يتحدث عنه الحكام ويقولون إنه يبحث
عن مدينة خيالية نائية ؟ .. أنا (رومنود) الذي ولد هنا لكنه
لا يحسن التعامل . أحن إلى رياض دافئة وأغان وجمال . خلف
جبال (كارثيا) هناك مدينة (أوني) التي حكى عنها المسافرون .

يقولون إنها جميلة ورهيبة .. تعال نغادر (تيلوث) معنا ونقصد تلك المدينة . وسوف أصفى لأغتيك ليلاً عندما تجلب النجوم الأحلام إلى الحالمين . ربما كانت تلك المدينة هي (إيرا) التي تبحث عنها . سوف يرحب بنا الناس هناك ولن يصخروا منا .. »

قال إيراثون :

« أنا كنت أغنى في صباهى لكن لم يصغ لى أحد .. كان للرجال يسخرون منى ويطردوننى .. جريت كل مكان لكنى أعرف أننى لن ألقى للترحاب إلا فى إيرا .. مدينة الرخام والفيروز التى حكمها لى يوماً .. سنبحث عن إيرا برغم أننا قد نجدها فى أونيائى ، وإن كنت أشك فى هذا لأن جمال إيرا خارق لا يمكن أن تصفه من دون أن تبهر ، بينما عن أونيائى يتهاشم ركبوا الجمال فى حذر .. »

عند الغروب تطلق إيراثون ورومنود بين التلال الخضراء والغابات الباردة . وكان الطريق وعراً غامضاً فلم يشعر قط أنهما اقتربا من أونيائى مدينة المعازف والرقص . وعند الغسق كان إيراثون يغنى لمغائى مدينة (إيرا) بينما للصبي يصغى ، وأكلاً للكثير من الفلكية والفراولة ولم يشعر بمرور الوقت لكن لابد أن زمناً طويلاً مضى . لم يعد رومنون الصغير صغيراً وإن ظل إيراثون كما كان .. ثم جاءت اللحظة التى بدا فيها أن رومنون أكبر سنّاً من إيراثون . برغم أنه كان صبيّاً صغيراً عندما جلس يتأمل الماء فى نهر زورو الرائد .

ذات ليلة عندما اكتمل القمر ، وصل المسافرون إلى حافة صخرية تطل على ثوار أونيائى التى لا تعد ولا تحصى . قلل لهما الفلاحون إيهما قريبان ، وعرف إيراثون أن هذه ليست مدينته . كانت الأكوال هنا حادة بينما فى مدينته كانت الأضواء ناعمة كضوء القمر إذ تسرب من النافذة بينما أمه تغنى له وهو طفل . أونيائى كانت مدينة معازف ورقص لذا انحدر إيراثون ورومنود بحثاً عن أناس يجلب لهم الغناء والأحلام بعض السعادة . لكنهما وجدا فى المدينة أناساً يعربدون بين بيت وبيت ويطلبون من النوافذ والشرفات . وقد وضعوا لكثير الورد ، وكلهم يصغون لغناء إيراثون ويقتفونه بالورد .. هكذا شعر الرجل بأنه وجد أولئك الذين يفكرون ويشعرون مثله .

عندما بزغ الفجر نظر إيراثون حوله فى حيرة ، لأن قباب أونيائى لم تكن ذهبية فى الشمس ، ورجال أونيائى كانوا شاحبين من العريضة أثقلت الخمر عقولهم ، فلم يكونوا كرجال إيراثون . لكنهم أحبوا غناؤه لذا قرر أن يبقى معهم .

راح يقضى فى القصور على منصة بلورية فوق أرض من المرايا ، ومنحه الملك عبادة أرجوانية محلاة بالذهب وأساور من العاج وأمكنه فى غرفة مذهب على فراش من الخشب المنقوش ، له سقف من الحرير الموشى بالزهور .. هكذا عاش إيراثون فى أونيائى مدينة المعازف والرقص ..

لا نعرف كم مكث إيرانيون في أووناي ، لكن ذات يوم جاء الملك براقصين متوحشين من صحراء ليرانيين ، وعازف ناي داكن للبشرة من نرين في الشرق ، ومن ثم كف القوم عن إلقاء أثرهم على إيرانيون وراحوا يلقونها على الراقصين وعازف الناي .

الفتى رومنود كبر أكثر فأكثر واحمر وجهه من فرط شرب الخمر ، وصار يحلم أقل فأقل ، ولم يعد يهتم كثيراً بقضاء إيرانيون . وذات ليلة كان الفتى الذي ازداد سمعة يلتهم طعام مألوفة عندما راح يشهق ويبعث عن الهواء ، ثم مات مختلفاً جوار إيرانيون الذي كان يقف في حزن .

بعد ما بكى إيرانيون جوار قبر رومنود ، ألقى عليه أغصان الأشجار التي كان يحبها ، ثم نزع ثيابه التي منحها له الملك وغادر مدينة أووناي .. مدينة المعازف والرقص ..

في ضوء الغروب مضى إيرانيون يبحث عن مدينته ورجال يفهمون أغانيه وأحلامه . ظل شاباً للأبد وهو يقف لإيرا بهجة الماضي وحلم الغد .

ذات ليلة بلغ كوخاً عميقاً لراع يحرس قطيعاً ، على منحدر صخري يطل على مستنقع رمال متحركة . قال له إيرانيون :

« هلا أخبرتني عن مكان إيرا .. مدينة أرخام والفيروز .. حيث يجري نثرا وحيث تغنى شلالات نهر كرا للوبيان الخضر ؟ .. »

سمع الراعي هذا فنظر بدهشة لإيرانيون كأنه يتذكر شيئاً ثم هز رأسه وقال :

« أيها الغريب .. أنا قد سمعت اسم إيرا والأسماء الأخرى التي ذكرتها ، لكنها تأتيني عبر ذكريات قصية .. سمعتها في شبلي من شفتي صديق لعب .. ابن متسول اعتاد أن يؤلف قصصاً خرافية عن القمر وحكايات الأرض القريبة . كان يحسب نفسه ابن الملك برغم أننا كنا نعرفه منذ ولد .. كان وسيماً لكنه ملئ بالحمافة والغرابة . وقد هرب في صباتا كي يجد من يصفون لقصصه وأحلامه . كان يحكى عن أرض لم تكن ولا يمكن أن تكون ! .. كان يحكى عن إيرا ونهر كرا . كان يحكى أنه عاش هناك كأمير برغم أننا عرفناه منذ ولد ولم تكن هناك قط مدينة اسمها إيرا .. لا وجود لها إلا في أحلام صديق طفولتي إيرانيون .. »

وفي ضوء الشفق إذ ظهرت النجوم واحدة تلو أخرى ، مشى نحو الرمال المتحركة رجل مسن يلبس ثياباً رثة أرجوانية ، وعلى رأسه تاج من أوراق الكرم ، وهو ينظر أمامه كأنما يتأمل قباب إيرا الذهبية ، حيث يفهمون الأحلام . في تلك الليلة شهد للعالم القديم مصرع الجمال والشباب .

موسيقا إريك زان

لقد قمت بفحص خرائط المدينة بعناية عظيمة ، لكنى لم أجد شارع (دوسيه) ثانية . لم تكن الخرائط حديثة فحسب لأننى أعرف أن الأسماء تتغير . لقد بحثت فى كل التاريخ القديم للمكان وبحثت فى كل بقعة عن هذا الشارع . برغم هذا تظل الحقيقة المحرجة هى أننى غير قادر على إيجاد البيت ولا الشارع الذى سمعت فيه فى الأشهر الأخيرة من حياتى للفقر كدارس ميتافيزيقا بالجامعة موسيقا (إريك زان) .

كون ذاكرتى محطمة فهذا شئ لا يدهشنى .. إن صحتى العقلية والجسدية قد تأثرت كثيراً أثناء إقامتى فى شارع (دوسيه) . لكنى ما زلت مرتبكاً لأننى نسييت المكان الذى لم يكن يبعد عن الجامعة أكثر من نصف ساعة من المشى وكان مميزاً .. لكنى لم ألق قط من رأى شارع (دوسيه) .

يقع الشارع عبر نهر أسود للمياه تحيط به مستودعات بنيت من قرميد ، ويعبره جسر من الحجر الأسود . كان النهر أسود دائماً كلن دخان المصانع القريبة يحجب عنه الشمس للأبد . وكانت مياه النهر خبيثة رائحة وأنا أعتمد على هذه الرائحة فى العبور عليه يوماً ما . أخيراً تصل لعمر مبلط بحجر الإسكافى يقودك إلى شارع (دوسيه) .

علق هؤلاء القوم في ذاكرتي بسبب تقدمهم الواضح في السن .
لا أعرف لماذا عشت في هذا الشارع لكنها كانت فترة قاسية في
حياتي تنقلت فيها بين عدة مساكن بسبب إفلاسي . حتى وصلت
إلى هذا المسكن الذي يملكه (بلادو) المشلول . كان ثالث بيت
من بداية الشارع وأعلى البنايات هناك .

غرفتي كانت في الطابق الخامس وكانت الوحيدة المسكونة
لأن البناية كانت خالية . ليلة وصولي سمعت موسيقا من العلية
فوقى وسألت عنها (بلادو) العجوز في اليوم التالي . قال لي
إن العازف هو ألماتي أخرس يعزف الكمان يوقع باسم (إريك
زان) .. قال لي إن هواية (زان) في العزف بعد عودته من
الأوركسترا ليلاً هي سبب اختيار هذه الغرفة له .

رحت أسمع زان كل ليلة ، ويرغم أنه كان يمنعني من النوم ،
فإن غرابية موسيقاه أبهرتني .. لم تكن تمت بصلبة لأية موسيقا
سمعتها من قبل . قررت أنه عازف شديد الأصالة .. كلما
أصغيت أبهرت وبعد أسبوع قررت أن أتعرف به .

ذات ليلة كان عائداً من العمل فاستوقفته وقلت له إنني أريد
أن أعرفه وأكون معه وهو يعزف . كان رجلاً صغير الحجم
متواضع الثياب أزرق العينين له وجه غريب ورأس أصلع . وبدا
كأنه أدهش وغضب لكلماتي . في النهاية تراجع أمام مودتي

الواضحة . وأشار لي أن أتبعه إلى العلية . كانت غرفته في
الجهة الغربية المطلة على الشارع ، وكانت غرفته واسعة جداً ..
بنت كذلك بسبب خلوها من الأثاث . سرير معدني وحوض غسيل
وثلاثة مقاعد ومكتبة عملاقة . كان الغبار وخيوط العنكبوت في
كل مكان مما جعل المكان يبدو غير مسكون . من الواضح أن
عالم الجمال الذي يراه موجود في خياله فقط .

أغلق الباب وأشعل شمعة وأخرج الكمان من علته المتأكلة
وجلس على مقعد غير مريح . لم ينظر لنوتة وإنما راح يعزف
من الذاكرة .. سحرني لمدة ساعة بمقطوعات لم أسمعها من قبل
ومن المستحيل أن يصفها من ليس مختصاً ..

تدنت نفسي هذه الألحان مراراً فيما بعد ، وعندما انتهى
عزفه طُبت منه أن يكرر بعض المقاطع فوضع القوس جانباً
وارتسم على وجهه ذلك المزيج من الخوف والضيق الذي رأيته
على وجهه أول مرة . حاولت أن أصفر بعض الألحان كما
سمعتها منه أمس ، لكن يده العظمية امتدت في حزم إلى فمي
لتمنعني من تقليد هذه الألحان .

وهنا أظهر علامة أخرى على غرابية أطواره عندما اختلص
نظرة إلى النافذة كأنه يخشى قدوم متطفل يتوقعه ، وهو تصرف

غريب لأن العلية تقع فوق مستوى كل البنايات المحيطة بها وهذه النافذة تطل على الشارع المنحدر .

شعرت برغبة في أن ألقي نظرة من تلك النافذة لأرى تلك الأسطح التي يضرها ضوء القمر ، والتي لا يبصرها أحد سوى هذا السكان . اتجهت للنافذة وكنت أجنب الستائر عديمة الشكل ، لولا أن لحق بي السكان الأخرى بفضب مذعور أكثر مما سبق ، وهذه المرة كان يشير للبواب في عصبية متأهبا لجرى بيديه لو القضى الأمر .

تضايقت منه فطلبت منه أن يتركني وقلت إني سأصرف . استرخت قبضتي ولاحظت شمنزرى فبدأ غضبه يتلاشى . ثم أشر لي إلى مقعد كي أجلس وكتب لي كلمات على ورقة بفرنسية رديئة جدرة بأجنبي .

كانت الورقة التي ناولها لي تحمل عبارات طلب العفو . كتب إنه وحيد عجوز تتناهبه مخاوف غامضة . لقد أحب إنصاتي لموسيقاه ورجا أن أعود له ولا ألبالي بغرابية أطواره . لكنه لا يطيق أن يسمع الحانة من شخص آخر ولا يطيق أن يلمس أي شخص شيئا في غرفته .

طلب مني أن أطلب من (بلاندو) أن ينقلني لغرفة في طابق تحت هذا كي لا يضايقتني صوت العزف ليلاً ، وقال إنه سيدفع أي فارق في الإيجار .

شعرت بتعاطف مع الرجل ، فهو مرهق بمخاوف نفسية مثلي ، وقد علمتني دراستي أن أتصالح .

جاء صوت من خارج الغرفة فلابد أن المصراع تحرك مع هواء الليل ، لذا أجهلت لكنه أجهل مثلي . صافحته وقصفت في النهاية .

في اليوم التالي أعطاني (بلاندو) غرفة أعلى سعراً في الطابق الثالث ، بين غرفتي مراب عجوز ومنجد . لم يكن هناك مكان في الطابق الرابع .

لم يطلب مني (زان) أن أزوره ثانية ، وحينما زرته لم يبدو مستريحاً .. كان هذا في الليل يوماً لأنه ينام نهاراً . لم يزيد إعجابي به برغم أنني كنت مفتونا بالعلية والموسيقا الغربية . كنت أريد أن ألقي نظرة من تلك النافذة ، لكنني تسلمت مرة إلى هناك أثناء ذهابه للأوركسترا ، لكن باباً كان مغلقاً .

ما نجحت فيه كان سماع العزف الليلي لهذا العجوز . في البداية كنت أصعد على أطراف أصابعي للطابق الخامس ثم تجرأت على التصعود للعلية . هناك خلف الباب المغلق الذي تم سد ثقب مفتاحه ، كنت أسمع موسيقا تفعمني رعباً غير محدد .. ليس لأن الأصوات كانت مزعجة فهي لم تكن كذلك ، لكن النفقات كانت توحى بشيء غير أرضي وأحياناً كانت تتخذ شكل سيمفونية لا أتصور أنها تصدر عن عازف واحد .

مرت الأسابيع وازداد العزف توحشاً بينما اكتسب العازف جموحاً غريباً .. لم يعد يسمح لى بالدخول فى أى وقت ، وكان يتجنبنى إذا التقينا على الدرج .

ذات ليلة تحول صوت الكمان إلى جحيم من الأصوات جعلنى أشك فى عقلى . ولولا يقينى من أن هذا الرعب حقيقى .. لولا سماعى خلف الباب تلك الصرخة المفزعة التى لا تخرج إلا من فم أخرس فى أعنف لحظات الرعب طرقت الباب مراراً بلا جواب ..

مرت لحظات ثم سمعت العجوز البائس يحاول النهوض من على الأرض .. تصورت أنه فقد الوعي واستعاده فواصلت الدق . سمعته يعلق مصراعى النافذة ثم يتجه للباب فيفتحه . هذه المرة بدا راضياً عن مجيئى وتعلق بمعطفى كما يتعلق طفل بأمه .

جعلنى ادخل وأجلس على مقعد وجلس على آخر ، وراح يهز رأسه لبعض الوقت كأنه يصغى . ثم اتجه إلى المنضدة وكتب مذكرة ناولها لى . كانت المذكرة تتوسل لى أن أبقى حيث أنا إلى أن يكتب بالألمانية تقريراً كاملاً عن كل الغرائب والأهوال التى تحدث به .

انتظرت فراح قلمه يجرى على الورق .

ربما مرت ساعة وأنا جالس أنتظر ، بينما الموسيقار العجوز يكتب ورقة تلو أخرى . من حين لآخر ينظر للستار والنافذة .. خيل لى إننى أسمع صوتاً بعيداً أقرب إلى عزف فى بيت بعيد بالخارج . كان تأثير هذا على زان مخيفاً لأنه نهض وامسك بالكمان وبدأ يعزف أعنف عزف سمعته منه .

من الصير أن أصف عزفه فى تلك الليلة ؛ لأننى كنت أرى وجهه وأدرك أنه يعزف من فرط الرعب . كان يحاول عمل جلبة كأنه يبعد شيئاً ما ... ازداد العزف جنوناً لكنه احتفظ بالعفوية التى عرفتھا فى كل الحان هذا الرجل . ميزت الطابع العام .. إنها رقصة مجرية عنيفة معروفة فى المسارح وللمرة الأولى أسمع زان يعزف لحناً لعزف آخر .

أعلى فأعلى .. أعنف فأعنف .. الكمان يصرخ . كان العازف يتصبب عرقاً وراح يتلوى كقرد . فى عنفه كنت أرى ظلالاً للساتير وعبدة باخوس يرقصون فى هوة عميقة وسط الدخان والبرق .

بدأ المصراع يهتز مع ربح الليل العاوية كأنه يتجاوب مع العزف المجنون . الكمان يبعث نغمات لا أصدق أن الكمان قادر على بعثها . راح المصراع يهتز بقوة ويضرب النافذة . ثم نهشم الزجاج فاندفعت الريح الباردة للداخل وطارت الأوراق على

المنضدة التي كان زان يكتب نكريته عليها . نظرت لزان فوجدت فيه تقريباً غائب عن الوعي . عيناه لزرقلوان جاحظتان زجاجيتان لا ترين ، والعزف صار طقساً عربيداً لا يستطيع قلم أن يصفه .

فجأة حمل الأوراق وهرع إلى النافذة وفي حيرة راقبت الأوراق تطير . هنا تذكرت رغبتى فى النظر من هذه النافذة . كان الظلام دامساً لكن أضواء المدينة كانت تتوهج وتوقعت أن أراها وسط الريح والمطر .

لكن حينما نظرت من النافذة .. نظرت بينما الشموع تهتر والكمائن المجنون يعوى بريح المساء . لم أر مدينة .. لا أضواء ولا شوارع .. فقط سواد فضاء بلا نهاية .. فضاء لا يشبه أى شيء على الأرض ..

وإذ وقفت أنظر فى رعب لطفاً الهواء ضوء الشموع تاركاً إياى واقفاً فى الظلام المتوحش الكثيف والجحيم لمامى . وجنون الكمان من خلفى .

تراجعت فى الظلام فاصطدمت بالمنضدة وأسقطت مقعداً ..

لأننى نفسي وزان يجب أن أحاول مهما كنت القوى النفسى أجابها .. يخيل لى إن شيئاً بارداً اصطدم بى فصرخت لكن صرختى لم تتقلب على صوت الكمان . وفجأة من الظلام ضربنى القوس المجنون .. عرفت أننى بقرب العازف ..

مددت يدي لمقعد زان وهزرت كتفه . لم يستجب .. واستمر الكمان فى العواء ..

مددت يدي لرأسه لأوقف حركته الميكانيكية وصرخت فيه كى نمر مغا من رعب الظلام .. لكنه لم يرد ولم يخفف من جنون موسيقاه .

عندما لمست يدي لفته لرتجفت .. لم أعرف المسبب .. لم أعرف حتى لمست وجهه فلركت فيه بارد كثلج متصلب لا يتنفس . بمعجزة ما وجدت قلب والمزلاج فتدفت فلراً من هذا الشيء زجاجى العينين فى الظلام .. من عواء هذا الكمان الملعون الذى يزداد جنوناً ..

جريت عبر الدرجات التى لا نهاية لها ، راكضاً نحو الشوارع الضيقة . ألثت عبر الجسر الأسود عابراً إلى الشوارع الواسعة للصحية التى أعرفها . لم تكن هناك ربح .. كان القمر مكتملاً والمدينة كلها تتوهج بالضوء .

برغم بحثى المذيق لم أستطع قط أن أجد شارع (بوسيه) من حينها .. لكننى لمست ناعماً على هذا ولا على فقدان تلك الأوراق التى كان بوسعها أن تفسر لى لغز موسيقا (إريك زان) .

(*) دخل تعبير (موسيقا إريك زان) الوجدان الجمعى الغربى ، لدرجة أن هناك عدة فرق تقدم موسيقا مجنونة واختارت لنفسها ذات الاسم . يمكنك تحميل فيلم عرقس لمتى طريف قصير يحكى قصة ذاتها من الموقع :

العجوز المخيف

كانت تلك فكرة (أنجيلو ريتشى) و (جو تزانك) و (ماتويل سيلفا) أن يزوروا العجوز المخيف . يعيش هذا العجوز وحيداً في بيت عتيق في (ووتر ستريت) قرب البحر ، وهو مشهور بأنه ثرى وضعيف ، وهذا ما يشكل إغراء شديداً لمن يمارسون للمهنة التي يمارسها هؤلاء السادة . إن مهنة هؤلاء القوم ليست أكثر شرفاً من المرققة .

يقول سكان كنزبورت ويعتقدون في أشياء كثيرة بصدد العجوز المخيف .. أشياء تبقى في أمان من اهتمام السادة أمثال ريتشى ورفاقه ، وبرغم أن الكل كان موقناً أنه يخلق كنزاً عظيم القيمة في مسكنه الهائل المرعب .

الواقع أنه رجل غريب الأطوار ويقال إنه كان قبطاناً لسفينة شراعية سريعة خاصة بشركة الهند الشرقية ، وهو مسن بحيث لا يذكر أحد أنه كان شاباً ، صموت بحيث لا يعرف أحد اسمه .

في فناء داره تجد مجموعة غريبة من الحجارة العملاقة مرتبة ومطوية بشكل غريب ، حتى تشبه أصنام المعابد الشرقية . هذه المجموعة تثير رعب الصبية الذين يضايقون العجوز أو يهوون تحطيم نوافذ داره بقذائفهم . هناك أشياء أخرى تخيف الأكبر سناً للذين يختلمون البصر عبر النوافذ .

يقول هؤلاء إن هناك منضدة عليها زجاجات كثيرة .. تتلى فيها قطعة رصاص كالبندول من خيط . يقولون إن الرجل يكلم هذه الزجاجات ويطلق عليها أسماء مثل (جاك) و (الوجه ذو النوبة) و (نوم الطويل) و (جو الأسباني) و (بيترز) و (الرفيق ليس) . قالوا إنه إذ يكلم الزجاجات يهتز الخيط كأنه يجيب .

لم يكن (أنجيلو ريتشى) و (جو تراك) و (مانيو سيلفا) يمتون بصلة لدماء نيو إنجلند بل كانوا دماء جديدة وافدة .. وقد رأوا أن الرجل العجوز مقعد تقريباً لا يمشى من دون عصاه ، ويداه ترتجفان بشكل مثير للشفقة . بالفعل شعروا بنوع من الأسف وهم يقصدون دار العجوز الذى تعوى الكلاب عندما تراه . لكن العمل هو العمل .. هناك إغراء شديد لدى أى لص فى رجل عجوز واهن بلا حساب فى المصرف ، ويدفع ما عليه من مال فى المتجر بنقود إسبانية ذهبية صكت منذ قرنين .

اختار السادة (أنجيلو ريتشى) و (جو تراك) و (مانيو سيلفا) ليلة 11 إبريل للزيارة . كان على (ريتشى) و (سيلفا) إجراء المقابلة مع العجوز بينما السيد (تراك) ينتظرهما بسيارة فى ستريت عند الباب الخلفى لدار مضيفهما . فلم يكن أحدهم يرغب فى لقاء غير ضرورى وغير متوقع مع الشرطة .

تحرك السادة منفصلين كي يمنحوا أية شكوك شريرة بصدد نولياهم . التقى ريتشى وسيلفا فى ووتر ستريت عند باب العجوز الأمامى . لم يحبا كثيراً ضوء القمر الساطع على الصخور لكن كفت لديهما أشياء أهم . كذا يعرفان أنه من الصعب جعل الرجل يتكلم عن ذهبه المخبأ لأن القباطنة المسمنين أميل للعناد والتكتم . لكنه كان مسناً واهناً وهما اثنان . والسيدان متمرسان فى فن جعل الأشخاص ثرثارين ، ومن السهل أن تكتم صرخات رجل ضعيف عجوز . مشياً نحو النافذة وأصغياً للرجل وهو يكلم إحدى زجاجاته .

ثبنا الأقنعة وبقا على الباب البلوط فى أدب .

بدا الانتظار أطول من اللازم بالنسبة لمستتر تراك وهو يبحث فى السيارة التى تقف عند باب السيد العجوز الخلفى . كان رفيق القلب نوعاً ولم يحب الصرخات المريعة التى دوت فى المنزل للمهجور عندما حان وقت العملية . ألم يطلب من رفيقه أن يكونا رقيقين قدر الإمكان مع القبطان العجوز ؟

راح يراقب البوابة المصنوعة من خشب البلوط وسط الجدار الصخرى . أحياناً كان ينظر لساعته متصائلاً عن سبب التأخير . هل مات العجوز قبل أن يكشف عن مكان الكنز ؟

لم يحب الانتظار طويلاً فى الظلام .. هنا سمع صوت طرقات داخل البوابة وسمع من يبحث فى المزلاج الصدى برفق . ثم رأى الباب الثقيل ينفتح .

ضيق عينيه ليرى ما جليه زميلاه من ذلك البيت الشقى ، لكنه حين نفق النظر لم ير ما تنتظره .. لم يكن زميلاه هناك . فقط العجوز المخيف يتوكأ على عصاه ويبتسم فى شر . لم يكن قد لاحظ لون عيني الرجل من قبل . وقد أدرك الآن أنهما صفراوان .

إن الأمور البسيطة تحدث إثارة عظمى فى المدن الصغيرة ، ولهذا راح القوم يتكلمون طيلة الربيع والصيف عن الأجساد الثلاثة مجهولة الهوية والممزقة بالسيف ، والتي هشمته منات الأحذية ذات الرقبة ، والتي ألقي بها المد على الشط ..

تكلم الناس عن أشياء صغيرة مثل سيارة مهجورة فى شيب ستريت ، وصرخات غير آدمية كأنها صدرت عن طيور بحرية ، والتي سمعها بعض الناس ليلاً . لكن لم يتكلم أحد قط عن الحادث مع الرجل العجوز المخيف . كان بطبعه متحفظاً وعندما يشيب المرء ويضعف فإن تحفظه يزداد . كما أن قبضاتاً عجوزاً كهذا لابد وأنه رأى أشياء أكثر بشاعة فى شبابه الذى لم يعد يتذكره .

المقبرة

عندما أحكى الظروف التى قادتني للاحتجاز فى ملجأ المجائين هذا ، فإبنى أفهم أن وضعى الحالى سوف يجعل الناس يشكون فى صحة قصتى .

إنها حقيقة نكسة أن أكثر البشر محدودو البصيرة العقلية بحيث لا يمكنهم الحكم على هذه الظواهر بصبر ونكاء . الظواهر التى لا تراها وتشعر بها إلا القلة من مفرطى الحساسية لنفسية . الرجال الأكثر ثقافة يعرفون أنه لا يوجد فاصل واضح بين الحقيقى وغير الحقيقى ، وأن الأشياء لا تبدو هكذا إلا عن طريق وعينا .. لكن مادية الأغلبية تعتبر تلك الوهجات من البصيرة التى تخترق الحجب جنونا .

اسمى (جبرفاس دودلى) .. كنت حالماً وصاحب رؤى منذ طفولتى . كنت ثرياً أكثر من حاجتى ولم أكن ذا مزاج يسمح بالدراسة النظامية والاندماج فى الحياة الاجتماعية .

قد أمضيت صباى ومراهقتى مع كتب قديمة شبه مجهولة وأنا أجوب الحقول قرب مسكنى . يخيّل لى أننى لم أر أو أقرأ فى تلك الكتب ما كان أقرأتى يرون ويقرعون . لكن على ألا أصرح أكثر لأن الكلام الصريح قد يعيد الشك فى قواى العقلية كما أسمع رفاقى . يكفينى أن أقص الأحداث ولا أحاول تفسيرها .

قلت إبنى عشت بعيداً عن للعالم العرنى ، لكن لم أقل إبنى عشت وحدى .. لا بشرى يقدر على هذا ..

جوار بيتى يوجد واد مشجر اعتدت أن أمضى أكثر وقتى فى ظلمته ، أفكر وأحلم . على منحدراته مشيت خطواتى الأولى طفلاً ونسجت أحلام صباى . رأيت حوريات الأشجار وراقبت رقصهن المحموم تحت أشعة القمر الخافتة . لكن لن أتكلم عن هذا الآن بل عن القبر المتوحد فى ظلمات الأشجار ، وهو قبر (هيدز) المهجور ، أسرة قديمة عريقة غاب آخر أحفادها فى هذه الظلام قبل مولدى بعقود .

القبر الذى أتكلم عنه من جرائيت قديم زال لونه بفعل الأبخرة والرطوبة عبر أجيال . حفر فى جانب الجبل بحيث لا تراه إلا من المدخل . الباب قطعة حجر تتصل بمفصلات صدنة وقد أبقى نصف مفتوح فى موضعه بجنازير حديدية ضخمة كما هى العادة المربعة منذ نصف قرن . هناك عاصفة دمرت قمة هذا الضريح منذ عقود ، ولهذا يتكلم الناس فى هيبة عن (غضبة السماء) .. مما أثار فضولى ولهفتى لمعرفة هذا المكان .

حينما دفن آخر آل (هيدز) هنا جاءت بقاياها من مكان بعيد ، فلم يبق من يضع أرهاً على القبر ولا يجسر أحد على اجتياز الظلال التى تحيط بهذه الصخور . لن أقص عصر ذلك اليوم الذى وجدت فيه بيت الموت هذا . كان هذا فى منتصف الصيف عندما تتحول الغابات إلى كتلة متجانسة حية من اللون الأخضر . فى هذا المناخ يفقد العقل معاييرهِ ويصير المكان والزمان بلا معنى .

كنت أمضى يومي في رياض الولادى الغلمضة ، وتُحاور مع أشياء لم أذكر اسمها . وكنت أمشي بين صفين من الأشجار عندما وجدت نفسي أمام باب القبر . لم أعرف ما وجدته .. كنت هناك مساحت من الجراتيت ونقوش جنازية فوق القوس . لكنى لم أشعر بأى خوف أو توجس وأنا أرمق هذا المدخل بل الفضول فقط . ثمة نداء خفى جعلنى أود أن أجتاز هذا المدخل برغم الجنازير التى تغلقه . حاولت أن أحشر جسدى عبر التجويف لكن لم أنجح . وأقسمت وأنا عائد لدارى أننى سأحد طريقة لاجتياز المدخل إلى الظلمات التى تدعونى لها . إن الطبيب ذا اللحية الرمادية الذى يتردد على غرفتى يوميًا ، قال للزوار إن هذا القرار يعكس جنوناً أحاديًا قاسيًا لكنى سأترك القرار النهائى لقرائى .

فى الفترة التالية رحلت أحاول أن أجتاز هذا المدخل وإن لم أخبر أحدًا بنواياى . لم يدهشنى أن أعرف طبيعة اكتشافى برغم أننى كنت طفلًا .

لقد كنت أقف أمام هذا الباب عدة ساعات كل يوم . أرى شيئًا يبدو كدرجات رطبة تقود لأسفل وكانت رائحة المكان تنفرنى لكنها تسحرنى . شعرت بأننى أعرفه من قبل فى زمن سحيق ..

عامًا بعد عام كنت أرمق القبر ، وفى هذا الوقت قرأت أسطورة (ثيديوس) وعن الحجر العماق الذى تحته كان البطل

الطفل سيجد قدره لو أنه استطاع أن يرفع الحجر . هذا جعل صبرى يهدأ فقلت لنفسى إننى سأنتظر حتى أكتسب قوة وعبقريّة تجعلانى أفتح الباب بسهولة .

ازدادت الفكرة إغراء بعد ما عرفت أن هناك صلة قرابة بعيدة واهية بين أُمى وتلك الأسرة المنقرضة . بما أننى آخر نسل لمرتى فهذا يعنى لئننى آخر من يحمل دم هذه الأسرة المنقرضة . بدأت أشعر كأن القبر قبرى .. بدأت أحلم بالمرور عبر هذه الدرجات الزلقة فى الظلام . وصنعت تعريشة من الأشجار فوق المكان . وصار هذا المكان مكاتى والباب المعلق ببلى .. هنا سأمضى الدهر راقداً أحلم بأحلام غريبة .

كانت أولى ليالى الرؤيا حارة رطبية . لابد أننى غفوت من التعب لأننى كنت شبه متيقظ عندما سمعت الأصوات . أخشى أن أتكلم عن الأصوات واللهجات .. لن أتكلم عن نوعيتها لكنها كانت غريبة فى المصطلحات والهجاء والنطق . بدا لى كأننى أسمع هنا كل لهجة عرفتها (نيو إنجلاند) منذ عصور المستعمرين البيوريتانيين حتى اللغة السائدة منذ خمسين عامًا .

هنا لاحظت ظاهرة غريبة أخرى . ظاهرة فريدة بحيث لا أعرف كيف أصفها .. خيل لى عندما نهضت أن ضوءًا كان فى الضريح وقد أطفاه أحدهم بسرعة .. لا أحسب الذعر غلبنى لكنى

أيقنت أنني تغيرت كثيراً في تلك الليلة . عندما عدت لداري اتجهت للصندوق العتيق في العلبة حيث وجدت المفتاح .. المفتاح الذي استطعت به في اليوم التالي فتح الحاجز الذي حاولت اجتيازه طويلاً بلا جدوى .

كنت في ضوء العصر الناعم عندما دخلت القبو المنسي . كنت مسحوراً وقلبي يدق بقوة .. أغلقت الباب خلفي ونزلت في الدرج على ضوء شمعتي الوحيدة ، وخيل لي أنني أعرف الطريق . وبرغم أن الشمعة راحت تفرقع بفعل اهتزاز المكان الكريهة ، فقد شعرت بأنني في داري . من حولي كانت هناك ألواح عليها توابيت أو بقايا توابيت بعضها كان مفتوحاً وسليماً وبعضها كان يتلاشى .. تساقطت المقابض الفضية وسط التراب ..

على لوحة رأيت اسم السير (جيفري هايد) الذي جاء من (سوسكس) عام 1640 ومات هنا بعد أعوام قليلة . ورأيت تابوتاً خالياً مفتوحاً بلا ساكن قرأت الاسم المكتوب عليه فجعلني أشعر بمزيج من رعب وطرافة ، ولسبب لا أفهمه وجدت نفسي أتمد في هذا التابوت .

في ضوء الفجر غادرت القبو وأغلقت السلسلة خلفي .. لم أعد شاباً برغم أن 21 شتاء لا أكثر قد جمدت جسدي ، وكان الفلاحون المبكرون ينظرون لي في دهشة . لم أظهر أمام أهلي إلا بعد نوم طويل منعش .

رحت أتسلق القبر كل ليلة لأرى وأسمع وأفعل أشياء لا أذكرها .. كان كلامي أول ما بدلت نظراً عليه التغيرات الجديدة .. وقد لاحظ الكثيرون كيف صارت لغتي عتيقة تستعمل كلمات منسية . ثم بدأ نوع من التهور والجرأة يطفئ على سلوكي . أظهرت معرفة واسعة ليصمت كتلك الرهينة التي عشتها في شبلي . ورحبت أक्सو الصفحات الخالية في بدايات ونهايات كتبي بأفكار بارعة لها طابع القرن الثامن عشر الأدبي .

ذات صباح على الإفطار كدت لأسبب كارثة إذ رحت أتكلم بهرح باخوسي للطابع من القرن الثامن عشر .. قلت شيئاً كهذا :

هلموا يا رفاقي ومعكم أباريق الجعة

واشربوا للحاضر قبل أن يولي

كوموا للحم في الصحاف

فالراحة لا يجلبها إلا الطعام والراح ..

لقصوا الأقداح ..

قبل أن يفنى الصباح

عندما تفنون ، لن تشربوا في صحة مليكم ولا حسناتكم ..

(أنكريون) كان ألفه أحمر

كذا يزعمون ..

لكن ما الأنف الأحمر وأنت سعيد مفتون ؟

أفضل أن أكون أحمر وأبقى بينكم

على أن أكون أبيض كالسوسن وميتاً

فترقني يا حسناء

اضحكوا !

فتحت ستة أقدام من التراب لن يكون الضحك سهلاً ..

في هذا الوقت اكتسبت الخوف من الرعود والعواصف .. لم أكن أبالي بهذه من قبل لكنني صرت أتواري في ركن قصي من البيت متى قررت السماء ممارسة ألعابها الكهربائية . كنت أتخيل ذلك البيت الذي احترق وكيف كان في عظمته قبل العاصفة .

في النهاية جاءت اللحظة التي خفت منها طويلاً . لقد ذعر أبواي لاختفاء ابنهما المتكرر وبدأا يتجسسان على مما كان يسبب كارثة . لم أحك لأحد عن زيارتي للمقبرة ، وقد أبقيت سري منذ الصبا ، لكنني الآن صرت مجبراً على أن أكون حذراً أثناء مشي في الغابة حتى لا أترك أي أثر يدل على .

كنت أبقى المفتاح معلقاً إلى صدري بخيط . ولم آخذ معي أي شيء وجنته بين جدران الضريح .

ذات صباح غادرت المقبرة ووضعت السلسلة ويدي ترتجف ، هذا وجدت من يراقبني بين الأشجار .

لقد دنت النهاية وعرفوا مكان تكعيتي وعرفوا سبب جولاتي الليلية .

لم يبدرنى بالكلام ، لذا هرعت للبيت كي أسبق بمعرفة ما سيقوله هذا الرجل لأبي المرهق القلق . هل سيرف العالم كله قصة تسلي للمقبرة ؟ .. تصور دهشتي حينما أسمع الجاسوس يخبر والدي همساً حذراً أنني قضيت الليل جوار باب المقبرة ، وعيناي اللتان غلفهما النعاس لا تبهجان المدخل الموارب ..

بأية معجزة تم تضليل هذا المراقب ؟ ..

صرت الآن مقتنفاً بأن قوة خارقة للطبيعة قد حمتني ، وأكسبني هذا الخاطر جرأة وبدأت أستعيد شجاعتي وأعود للقبو شاعراً بأن أحداً لن يراقبني .

ظننت لأسبوع غارقاً في تلك المتعة عندما حدث الشيء ..

وهكذا كتب على أن أنتقل لعالم من الأسف والرتابة ..

ما كان يجب أن أجرب في تلك الليلة ؛ لأن الرعد كان بين السحب وهناك تألق فوسفوري شيطاني ينبعث من المستنقع في أعماق الغابة . كذا كان نداء الموتى مختلفاً .

عندما خرجت من الغابة قرب الخراب رأيت في ضوء القمر الضبابي شيئاً توقعته دوماً بشكل غامض . البيت الذي رحل منذ قرن قد عاد ينتصب أمام الأنظار . كل نافذة تتألق بضوء شموع عدة ، وعلى الطريق تندفع عربات أرستقراطية بوسطن ، بينما امتلأ المدخل بسادة المجتمع الراقى .

وسط هذا الزحام اختلطت برغم معرفتي أنني أنتمى للمضيفين لا الضيوف . داخل قاعة البيت كانت موسيقا وضحك وخمر في كل يد . عرفت بعض الوجوه برغم أنني أعرفها أكثر وقد أبلأها الموت . كنت أنا الأكثر جنوناً والأكثر عزلة .. مرح مجنون راح ينصب في عروقي ..

فجأة دوى الرعد ... أعلى من صوت العربة ذاتها .. ضرب السطح وألقى بالذعر في قلوب الجمع الصاخب .

وخرجت السنة حمر من اللهب وهبات حارة من النار لتلتهم البيت واندلعت الصرخات .. وهرب الجميع ليغيثوا في الظلام . أنا وحدي بقيت .. مقيداً لمقعدى بخوف لا فرار منه ..

ثم استولى رعب جديد على عتلى .. لو احترقت وصرت رمداً فلن أرق أبداً في قبر آل (هايد) .. أليس تابوتى معداً لى ؟ .. أليس من

حقى أن استريح بين سلاة سير (جيفرى هايد) ؟ .. إن اسمى هو (جيرفاس هايد) ولسوف لأطالب بحقى فى الدفن هنا ..

عندما غاب شبح البيت المحترق ، وجدت نفسى أصرخ بين ذراعى رجلين أحدهما كان الجاسوس الذى تبغى للقبر .. كان المطر ينهمر مدراراً وفى الأفق الجنوبى يلتمع البرق .

كان أبى وقد غمر الأسف وجهه يقف بينما أنا أصرخ مطالباً بحقى فى الدفن هنا ، وكان يطلب من بمسكون بى بأن يرفقوا بى قدر استطاعتهم ..

كان هناك حشد من القرويين الفضوليين يحملون المصابيح ويحيطون بصندوق عتيق بدا واضحاً فى ضوء البرق . توقفت عن المقاومة للعنف وراقبت المشاهدين وهم يفتحون الصندوق . كنت ضربة البرق قد دمرت أقفاله فوجدناه مليئاً بالأوراق وأشياء ثمينة لكننى كنت أبحث عن شيء بعبته . كان تمثالاً صغيراً من الخزف لشاب يلعب جملة أنيقة ، وعليه الحروف (ج . هـ) .. وعندما رأيت وجهه بدا لى أنني أنظر فى المرأة ..

فى اليوم التالى أحضرونى لهذه الغرفة ذات القضبان على النوافذ ، وأخبرنى خدام بسيط عجوز كنت أحبه فى طفولتى بأشياء معينة . أما ما جرؤت على أن أحكيه عن تجاربى فى القبر فقد جلب ابتسامات الشفقة لا أكثر .

قال أبى الذى يزورنى بانتظام إبنى لم أجتزّ الجنزير على الباب قط ، وأقسم أن القفل الصدى لم يمس منذ خمسين عامًا . قال إن الفلاحين يعرفون بأمر رحلاتى للمقبرة وقد رأى كثيرون نائمًا فى التكية ..

لم يكن غدى ما يقال هنا لأن مفتاحى قد فقد فى صراع الليل . وقد أصر أبى على أن ما عرفته فى تلك اللقاءات الدلية ليس سوى ثمار قراءتى فى مكتبة أسرّتنا .

لولا خادمى العجوز حيرام لأفنتت كلية بأننى مجنون ، لكن حيرام المخلص للنهاية كان يثق بى وفعل الشيء الذى جعلنى أكتب هذه القصة للملا ..

منذ أسبوع فتح القفل الذى يغلق المقبرة ونزل بمصباح إلى تلك الأعماق ، وعلى لوح حجرى وجد تابوتًا مفتوحًا خاليًا عليه كلمة (جيرفاس) .

فى هذا التابوت وفى هذا القبر سوف أدفن كما وعدونى بالضبط ..

حقائق تتعلق بالفقيد

أرثر جرمين وأسرته (*)

(*) اضطرت محلة (حكايات عربية) لتغيير هذا الاسم الطويل إلى (القرد الأبيض)
كما أنار عيط لافكرافت لم يعد الاسم الأصلي إلا بعد أعوام من وفاته

- 1 -

إن الحياة شيء مروع ، فمن خلف العوالم التي نعرفها تطل لمحات شيطانية من الحقيقة التي تجبطها أكثر ترويعاً ألف مرة ..

لربما لو عرفنا من نحن ، لفطنا كما فعل سير (آرثر جيرمين) الذي أغرق نفسه بالبتروول ، وأشعل النار في ثيابه ذات ليلة . لم يضع أحد البقايا المتفحمة في إقاء أو خلد نكراه ، لأن بعض الأوراق التي تركها جعلت الناس يفضلون أن ينسوه .. بعض من عرفوه ينكرون أنه وجد أصلاً .

أحرق (جيرمين) نفسه بعد ما رأى الشيء في الصندوق الذي جاء من أفريقيا ، وكان هذا الشيء وليس مظهره الشخصي هو ما جعله ينهي حياته . فكيلون كانوا سيرغبون في الحياة لو كانت لهم ملامح (آرثر جيرمين) ، لكنه كان شاعراً ومثقفاً ولم يكن يبالى بمظهره .

كان العلم في عامه لأن جده الكبير سير روبرت جيرمين كان عالم أنثروبولوجي مرموقاً بينما جد جده سير (ويد جيرمين) كان من مكتشفى الكونغو الأوائل وكتب الكثير عن قبائلها . وكانت له نظريات غريبة عن سكان الكونغو بيض البشرة من قبل التاريخ مما جعل الكثيرين يسخرون من كتابه .. وفي العام 1765 وضعوا هذا المستكشف الشجاع في مستشفى أمراض عقلية .

كان الجنون موجوداً في سلالة (جيرمين) كلها وقد سر الناس لأنه ليس هناك كثيرون منهم . كان آرثر هو الأخير ، ولم يكن مظهرهم مريخاً .. ثمة شيء خطأ في ملامحهم لكن آرثر كان لمواهم ..

من الواضح أن الجنون بدأ مع سير (ويد) لأن ملامح من سبقوه من أجداد كانت وسيمة رفيقة . كما أن مجموعته من التذكارات ليست مما يمكن أن يجمعه رجل طبيعي . كانت زوجته ابنة تاجر برتغالي قابله في أفريقيا ولم يكن يحب الحياة البريطانية . رافقته مع رضيعها الذي ولد في أفريقيا في رحلته الثالثة والرابعة لكنها لم تعد قط . كانت تقيم منفردة في جناح خاص في دار (جيرمين) ولم يكن يخدمها سوى زوجها نفسه . يبدو أن الرجل كان متحفظاً بصدد أسرته لأنه إذ عاد لأفريقيا لم يترك أحداً يعنى بابنه سوى امرأة سوداء عجوز فبيحة من غينيا .

لكن كان كلام سير (ويد) هو ما أقتنع أصحابه بأنه مجنون .. في عصر العقل الذي هو القرن الثامن عشر ، كان من الحمق أن يتكلم المرء عن رؤى مجنونة ومشاهد غريبة تحت قمر الكونغو . عن أعمدة مدينة منسية غطتها الأشجار وعن درجات تقود لأقبية مظلمة . عن مخلوقات غريبة تعيش هناك .. مخلوقات ظلت حية بعد ما دمرت القرود العظمى للمدينة ..

بعد عوبته آخر مرة راح سير (ويد) يتكلم عن هذه الأمور بحماس مجنون خاصة بعد الكأس الثالثة في حقة (رأس الفارس) ويحكى عن معيشته في الغابة في أماكن لا يعرفها سواه . في النهاية وجد نفسه في مستشفى المجانين . لم يبد ندماً ..

كان ابنه قد كبر وبدأ يمقت بيته ، حتى جاءت اللحظة التي بدأ يخافه فيها .. وعاش في حانة (رأس الفارس) بالكامل ، وبعد ثلاثة أعوام مات .

برغم أن (فيليب) حفيد (ويد جيرمين) كان يشبه جده إلا أن منظره وطباعه كانت للفظظة أقرب لدرجة أن الناس اجتنبوه . لم يرث الجنون لكن غباءه كان مطبقاً وأحياناً كان بغضب غضبات مريضة . كان صغير الحجم لكنه قوى جداً ..

بعد 12 عاماً من ورقة لقب لورد تزوج لينة مدير عزبته وهي من أصل غجرى وقبل أن يولد ابنه التحق بالبحرية كبحار على . وإذ ننت الحرب الأمريكية من نهايتها عرف الناس أنه بحار على سفينة تجارية عند سواحل أفريقيا ، واختفى ذات ليلة عندما رست سفينته على ساحل الكونغو .

بدأت تلك الخاصية الأسرية الغريبة تظهر بشكل مختلف مع ابن سير (فيليب جيرمين) . كان فارغ القامة وسيماً فيه شيء

من المهابة للشرقية الغربية . بدأ (روبرت جرمين) حياته كدارس وباحث وكان أول من درس للتركة الغربية التي تركها جده ..

عام 1815 تزوج فتاة من أسرة الفيسكونت (برايت هولم) ورزق بثلاثة أطفال لم ير أحد أكبرهم ولا أصغرهم علناً بسبب تشوه عقلي وجسدي . حزينا راح العالم يبحث عن الراحة في العمل وقام برحلتين في أفريقيا .. في العام 1849 فر ابنه (نيفل) وهو فتى متمرد يجمع بين فظاظة جيرمين وعجرفة آل برايت هولم مع راقصة سوقية . لما عاد في العام التالي تلقى الصفع .. لقد عاد أرمل ومعه ابن هو (الفريد) الذي سيصير ولداً (لرثر جيرمين) يوماً ما .

قال الناس إن هذه المصائب هي التي أطارت عقل (روبرت جرمين) ، لكن ربما كانت بعض الأساطير الأفريقية هي سبب الكارثة . كان الباحث يجمع أساطير قبائل أونجا قرب مناطق بحث جده ، وهو يأمل أن يجد ما يثبت كلام جده عن مدينة مفقودة تعيش فيها كائنات عجيبة .

في أكتوبر عام 1852 زار المستكشف (صمويل سيتون) منزل جيرمين ومعه أوراق جمعها من الأوجا .. كانت هناك خرافات عن مدينة رمادية تعيش بها فرقة بيضاء ويحكمها إله أبيض . يبدو أنه ذكر بعض التفاصيل التي لن نعرفها أبداً .. لكن كوارث مرعبة بدأت تحدث ...

حينما غادر سير (روبرت جيرمين) المكتب ترك خلفه المستكشف مخنوقاً ، وقبل أن يقبض عليه أنهى بنفسه حياة أولاده الثلاثة . مات (نيل) وهو يحاول حماية ابنه (الفريد) ذى العلمين ، ونجح فى ذلك ...

حاول سير (روبرت) الانتحار عدة مرات ، وأصر بعناد على ألا ينطق كلمة ذات معنى ، ثم مات بعد عام بتزف مضى فى سجنه .

صار سير ألفريد باروناً عندما بلغ الرابعة من العمر ، لكن ميوله لم تكن جديرة بهذا اللقب . فى سن العشرين التحق بفرقة عازفين ، وفى سن السادسة والثلاثين هجر أسرته وصافر مع سيرك جوال . كانت نهايته بشعة لأنه بين الحيوانات التى كانت معه كانت غوريلا ضخمة فتحة اللون افتنن بها وكنت شهرتها عظيمة فى السيرك . فى النهاية طلب أن يسمحوا له بتشريب الحيوان وقد أدهش المشاهدين وزملاءه بنجاحه .

ذات صباح فى شيكاغو كان يجرى بروفة معها على مباراة ملاكمة بارعة ، وجهت له لكمة أقوى من المعتاد فأنت جسده وكرامته . لما ما حدث بعد هذا فيفضل عاملو السيرك ألا يحكوه . لم يتوقعوا أن يسمعوا الرجل يطلق صرخة غير بشرية .. بمسك خصمه بيديه ويوقعه على أرض القفص وينشب أسنانه فى حلقه . سقطت الغوريلا لكن ليس طويلاً .. وقبل أن يصل أحد أى شيء كان جسد المدرب قد صار عجينا .

- 2 -

كان آرثر جيرمين هو ابن ألفريد جيرمين .. وكان مطرباً فى المسرح . عندما فر الأب أخذت الأم طفلها إلى منزل (جيرمين) حيث لم يعد هناك من يعترض على وجودها ..

قررت أن تربي ابنها تربية قوية على قدر ما يسمح به ما معها من مال . كتبت موارد الأسرة محدودة تماماً الآن ، لكن آرثر الصغير أحب البيت وما فيه . كان يختلف عن أسلافه فى أنه كان شاعراً وحالماً . وقال الجيران الذين سمعوا عن زوجة (ويد جيرمين) إن لديها البرتغالى قد أفصح عن نفسه فى هذا الفتى . لكن كثيرين سخروا من حبه للجمال وقالوا إن السبب هو أمه التى كانت مجهولة فى المجتمع .

كانت شاعريته أكثر وضوحاً بسبب مظهره .. لقد كان معظم آل (جرمين) لهم مظهر منفر لكن وجه (آرثر) كان صليماً ... من الصعب أن تصف كيف يبدو ، كما أن طول ذراعيه كان يثير نفور من يقابله لأول مرة .

كان موهوباً فنال أعلى الدرجات فى أكسفورد وبدأ أنه جدير بسمعة أسرته .. برغم أنه كان شاعراً أكثر منه عالماً فإتته قرر أن يواصل عمل أجداده . وكان يشعر بمزيج غريب من رهبة وشغف كلما سمع عما وجدده جده .

عام 1911 بعد موت أمه قرر سير (أرثر جيرمين) أن يستكمل أبحاثه . باع جزءاً من ضيعته للحصول على المال ورتب حملة إلى الكونغو . رتب مع السلطات البلجيكية طلباً لأثلة وأمضى عاماً في بلاد الأونجا ووجد معلومات مهمة جداً .

بين قبائل الكاليريس كان هناك زعيم شيخ يدعى (مواتو) لم يحظ فقط بذاكرة قوية ، بل درجة عالية من الذكاء والاهتمام بالأساطير القديمة وقد أكد له صحة كل أسطورة سمعها .. أكد له وجود المدينة الحجرية والقردة .

حسب كلام مواتو قد زالت المدينة والقردة فقد دمرها النبتاجوس منذ أعوام . وبعد هذا الغزو حمل أفراد القبيلة معبودة المدينة المحنطة التي كانت هدف غزوتهم . تلك المعبودة هي القردة البيضاء التي عبتها مسوخ المدينة والتي كانت أميرتهم يوماً ما .

لم يعرف مواتو كنه تلك القردة البيضاء لكنه يعتقد أنهم بناء المدينة العتيقة ..

الأميرة القردة كانت زوجة إله أبيض كبير جاء من الغرب . حكما المدينة لفترة طويلة لكن عندما رزقا بابن رحل ثلاثهم . فيما بعد عاد الإله والأميرة .. ثم ماتت الأخيرة فقام زوجها بتحنيطها ووضع مومياءها في بيت حجري كبير حيث كان يعبد . ثم رحل وحده .

هنا توجد ثلاث تكملات للأسطورة ..

الأولى تقول إن شيئاً لم يحدث بعد هذا سوى أن المومياء صارت رمزا لرفعة وقوة كل قبيلة تملكها . لهذا اختطفها أفراد قبيلة النبتاجوس .

القصة الثانية تحكى عن عودة الأبيض والموت عند قصى زوجته . القصة الثالثة تحكى عن عودة الابن الذى صار رجلاً لكنه لا يعرف حقيقته ..

صار (أرثر) على يقين من قصة المدينة كما حكاها أبوه .. لقد وجد بقاياها وقدر أن الأساطير بالفت في وصف مساحتها ، لكن ما تبقى من حجارة يدل على أنها لم تكن مجرد قرية أفريقية .. لم يجد نقوشاً أو كتابة وكان صغر حجم الحملة لا يسمح بعمل حفريات . تكلم مع كل زعماء المنطقة عن القردة البيض والربة المحنطة ، لكن وقع على علق أوروبي أن يفسر المعلومات أكثر . كان هناك (فيرهين) وهو عميل بلجيكي لإحدى الشركات التجارية في الكونغو ، وكان يعتقد أنه ليس قادراً على العثور على المومياء فحسب بل الحصول عليها كذلك .

إن قبائل النبتاجوس القوية لم تعد سوى رعايا حكومة الملك ألبرت ، ويمكن إقناعهم بالتخلي عن معبودتهم هذه . لهذا عندما عاد أرثر جيرمين إلى إنجلترا كان مؤمناً أنه على عتبة كشف عرقى مهم لا يقيم بهل .

كان الريفيون قرب دار (جيرمين) يعرفون قصصنا غريبة من التي حكّاها سير (ويد) قديماً في حانة (رأس الفارس) ، وقد قضى (أرثر) وقته يسمع هذه القصص وينتظر ذلك الصندوق الذي سيُشحنه له (فيرهين) من الكونغو ..

راح يقترب أكثر فأكثر من حياة جده المجنون سير (ويد) وراح يسمع المزيد . كانت زوجة الرجل متوارية أكثر الوقت كما عرف ، وقد تساعل عن سبب هذه العزلة ثم قرر أن السبب هو جنون سير (ويد) . لابد أن المرأة التي كانت ابنة تاجر برتغالي كانت تعرف معلومات سطحية عن قلب أفريقيا ، وهذا جعلها تسخر من كلام سير (ويد) مما جعل الرجل عاجزاً عن أن يظفر لها . لا جدوى من هذه الاستنتاجات بعد قرن ونصف من موت جده وزوجته .

في يونيو 1913 وصل خطاب من (فيرهين) يقول إنه وجد المومياء .

قال البلجيكي إنه كشف خارق للعادة .. كشف لا يستطيع رجل الشارع أن يصفه .. ليس بوسع أحد أن يعرف إن كان هذا قرداً لم بشراً إلا من كان عالماً ، وعملية الفحص ذاتها ستكون عسيرة بسبب حالة المومياء المتدهورة .

إن الزمن ومناخ الكونغو ليسا مما يرفق بالمومياءات .. خاصة لو كان تحنيطها عمل هواة كما هو الحال هنا . حول عنق

المخلوق هناك سلسلة ذهبية عليها نقوش شعار نبالة ، ومن الواضح أنها كانت تخص رحالة تصنأ أخذها منه النباتجوس وعلقوها حول عنق المومياء .

سوف تصل المومياء بعد شهر من تلقى الخطاب . ووصل الشيء في الصندوق إلى دار جيرمين عصر يوم 3 أغسطس حيث نقلت للغرفة التي حفظت فيها الآثار الأثرية .

ما حدث بعد هذا يمكن معرفته من حكايات الخدم والأوراق التي وجدوها .

من ضمن القصص هناك قصة كبير الخدم للعجوز (سومس) وهي أفضلها وأكثرها تملساً . حسب قصة هذا الرجل الموثوق فيه ، فقد انفرد سير (أرثر) بالمومياء قبل فتح الصندوق وإن كان صوت الإزميل والمطرقة قد أوضح أنه لم يتأخر . لم يسمعوا شيئاً لفترة ثم سمعوا صرخة مروعة بعد ربع ساعة ..

على الفور خرج جيرمين من الحجرة وجرى لمقدمة البيت كأن عدواً مخيفاً بطارده ، والتعبير المذعور على وجهه يتحدى الوصف . قرب الباب توقف ثم هرع إلى القبو .

هنا تصاعدت رائحة بترول ورأى السليس السير (أرثر) ينفع خارجاً من البيت وهو يلعب بالبترول الذي غطاه من رأسه

إلى قدميه . وهو يجرى ليتوارى في الظلام المحيط بالبيت .
عرف الجميع أنها النهاية .

ظهر وهج بين الأشجار وتعالى النار إلى السماء أما السبب
الذى لم يَم أحد من أجله بجمع بقايا (آرثر جيرمين) المتفحمة
ولم تدفن ، فيكمن فيما وجدوه بعد ذلك .. خاصة الشيء فى
الصندوق .

إن المومياء المحنطة كانت شنيعة المنظر متحللة ، لكن من
الواضح أنها قرد أبيض مجهول السلالة . كانت أقرب للبشر
بشكل مروع . إن الوصف المفصل لن يسر أحدا لكن هناك أشياء
يجب أن يقال .. وهى تتفق مع الأساطير التى حكها سير (ويد
جيرمين) .

إن القلادة حول عنق المخلوق كانت تخص آل (جيرمين) ،
والنشابه واضح بين ملامح المومياء وملامح (آرثر جيرمين)
الحساس ، حفيد حفيد سير (ويد جيرمين) الذى تزوج زوجة
مجهولة لم يرها أحد قط .. زوجة زعم أنها ابنة تاجر برتغالى .

قام أعضاء معهد الأجناس الملكى بحرق الشيء وألقوا بالقلادة
فى بئر ، وبعضهم ينكر أن (آرثر جيرمين) كان له وجود على
الإطلاق .

داجون (*)

(*) حواء آخر من عالم الأفكار الذى يكرر من قصة لأخرى عرف عبدة
(داجون) فى قصة (ظل فوق ابرمات) وهما ترى ذات العدم من وجهة نظر
أخرى .

أكتب هذه الكلمات تحت ضغط عقلي واضح ، لأننى لن أكون بعد هذه الليلة . أنا مفلس وقد انتهت مخزونى من القطار الذى يجعل الحياة محتملة ، ولم أعد أطيق العذاب .. لذا سوف ألقى بنفسى من نافذة العلبة هذه إلى الشارع الحقيق من تحتى . لا تعتقد أننى منحل أو ضعيف بسبب خضوعى للمورفين ، فلو قرأت هذه الصفحات لأمكنك أن تخمن لماذا أريد النسيان أو الموت .

كان ذلك فى بقعة مهجورة من المحيط الهادى ، عندما سقط قلب الشحن الذى كنت فيه فريسة لهجوم ألمنى . كنت للحرب العظمى فى بدايتها وقوى الألمان لم تهو بعد إلى القاع ، لذا كانت سفينتنا جائزة قيمة ، بينما عوملنا نحن البحارة باحترام كلسرى . كانوا يعطوننا حريات واسعة حتى إننى بعد خمسة أيام من الأسر استطعت الفرار فى قارب صغير ومعى ماء ومؤن تكفى لفترة طويلة .

عندما وجدت نفسى أخيراً تحت رحمة الرياح لم أملك أية فكرة عن مكانى . لم أكن ملاحاً بارعاً قط وقدرت فقط أننى جنوب خط الاستواء . لم تكن هناك جزر ولا سواحل على مرمى البصر ، وقد مضيت تحت الشمس للحرق عدة أيام منتظراً قارباً يمر أو أن يلقى بى على ساحل مسكون . لم يظهر القارب ولا الأرض وبدأت أشعر بالفتوط .

حدث التغير أثناء نومى ولا أذكر التفاصيل لأننى كنت نائماً .. عندما صحوت وجدت أننى نصف مغمر فى مستنقع يمتد حولى وقد رسا فيه قلبى .

قد يتوقع المرء أن لطباعى الأول كان الدهشة من هذا المشهد ، لكننى كنت أكثر ذعراً منى مندهشاً لأننى شعرت فى الهواء والماء شيئاً شريفاً يفوق الوصف ... ربما كان السبب رائحة الأسماك الميتة لثقة أو أشياء أخرى تبرز من الوحل . لا أعرف كيف أعبّر بكلمات .. لا شيء على مدى السمع ولا شيء تراه .. فقط كان السكون مما ملائى بخوف يثير القيان .

كانت للشمس تتوهج فى سماء شبه سوداء مما فيها من سحب ، كأنها تعكس المستنقع تحت قدمى . إذ زحفت أدركت أن نظرية واحدة يمكن أن تفسر وضعى .. ربما حدث تغير بركاتى رفع جزءاً من قاع المحيط للسطح كاشفاً عن أراض ظل الماء يغمرها منذ ملايين السنين . هذه الأرض كانت تمتد بعيداً ولم تكن هناك طيور بحرية تفتت على الأجساد الميتة .

لماعات جلست أفكر جوار القارب الذى كان على جانبه يعكس بعض الظل من الشمس . مع تقدم النهار فقدت الأرض بعض لزوجتها وبدأ أنها تسمح بالمشى فوقها بعض الوقت . نمت

ليلتها قليلاً وفي الصباح حملت ما بقى معى من طعام وماء
ولستعدت للبحث عن عون .

كانت راحة السمك تنير الجنون لكن كان لادى ما يشغلنى عن
هذا ، وقد أمضيت اليوم كله أمشى غرباً مستهدياً برهوة أعلى
مما حولها وفي الليل كنت أنام .

أمضيت أربعة ليال وصلت لقاعدة تلك الرابية التى اتضح أنها
أعلى بكثير مما خيل لى من بعيد . كنت مرهقاً بحيث لم أستطع
التسلى فتمت جولها .

لا أعرف لماذا كنت أحلامى متوحشة فى تلك الليلة ، وصحوت
مبلاً بعرق بارد وقد نويت ألا أنام أكثر . وفى ضوء القمر أبركت
أنى كنت أحمى إذ فضلت المشى نهاراً .. لو مشيت ليلاً لاحتاجت
رحلتى إلى طاقة أقل .. لقد صار بوسعى أن أتسلى الآن ..

يجب أن أعترف لئننى عندما بلغت القمة ونظرت للوادي تحتى ،
أصببت بالذعر .. مساحات لا نهاية لها من الظلام كائنات بلغت نهاية
العالم فعلاً .. وتذكرت مقاطع من (الفردوس المفقود) .

فجأة رأيت على المنحدر المقابل شيئاً متسعاً يرتفع مائة ياردة
أمامى . جسم يلتصق فى ضوء القمر .. كان قطعة صخر عملاقة
لكننى قدرت أن شكلها ليس من عمل الطبيعة . بل هى تحمل
لمسات كائنات تشعر وتفكر .

شعرت برعب لكن هذا لم يمنع شعورى بنوع من بهجة
المكتشفين ، وتفحصت ما حولى . كان القمر قرب السميت بسطع
فوق الدرجات المصنوعة فى الصدع ، وقد بدأ يكشف تلك
الظلمات . كانت هناك مياه وكان هناك نصب حجرى عملاق
يمكننى أن أرى بعض النقوش على سطحه .. نقوش هيروغليفية
لا أعرف كنهها .. لكن فيها رموزاً بحرية كثيرة مثل الأسماك
والضفادع .. هناك كائنات لم أرها من قبل لكننى ميزت شكلها
وسط المستنقع .

كانت هناك رسوم تمثل رجالاً لكنهم أقرب للأسماك التى تسبح
فى غار بحرى . لا أستطيع وصف الوجوه أن هذا يجعلنى أوشك
على فقدان الوعي . هم أقرب للبشر فى شكلهم العام لكن أيديهم
وأرجلهم ذوات أغشية ولهم عيون واسعة ..

قدرت أنها معبودات وثنية قديمة لقبيلة صيادين .. قبيلة
اندثرت قبل أن يظهر إنسان نياندرثال أو بلتدون .. ووقفت
شاعراً بالرهبة أمام هذه النقوش التى تشير حيرة أى عالم
أنثروبولوجى .

فجأة رأيته ..

بصوت خافت وهو يرتفع للسطح لتدفع الشيء فوق المياه السوداء . كان ضخماً كريهاً له مظهر السيكلوب وتدفع كوحوش الكواييس نحو للنصب الحجري وأحيطه بأفرعه للصلاة القشرية .. ثم خرج من رأسه صوت غريب ..

أعتقد أنني جنتت وقتها ..

لا أذكر كيف تسلفت المنحدر ثائية ولا كيف جريت محمومًا نحو القارب .. أذكر أنني غنيت كثيرًا وضحكت عندما عجزت حنجرتي عن القناء . أذكر عاصفة هائلة وصوت رعد وأصواتًا لا تبعثها الطبيعة إلا في أسوأ مزاج لها .

ألقيت من الظلال في مستشفى في سان فرانسيسكو ، وعرفت أن قبطان السفينة الأمريكية الذي وجدني وسط المحيط هو من جليثي هنا . لقد تكلمت كثيرًا أثناء الهلوسة لكن أحدًا لم يبال بما قلت . لم يسمع منقذني عن أي انقلاب أرضي في المحيط أثناء رحلتي . ولم أر نفقا من قص قصة لن يصدقوها .

في الليل عندما يشحب القمر ، أرى الشيء .. جريت المورفين لكنه لم يعطيني سوى راحة مؤقتة وجعطني في قبضته كعبد بلا خلاص . لهذا قررت أن أنهي كل شيء .. فقط كتبت تقريرًا كاملاً ليرتسلي به الناس ..

أحيانًا أتساءل إن لم يكن هذا كله خيالاً ؟ .. مجرد هلاوس نتيجة الظمأ والشمس وأنا في القارب بعد فراري من الألمان ؟ .. لا أستطيع أن أفكر في البحر إلا وتخيلت الأشياء المخيفة الكامنة في الأعماق ترحف وسط الوحل ، تعبد أصنامها العتيقة وترسم أشباهها على النصب الحجرية .

أحلم بيوم ينهضون فيه من تحت الأمواج ليقتضوا على جنس للبشر الذي أهلكته الحروب . عندما تتكمش الأرض ويرتفع قاع المحيط ..

النهاية قريبة .. أسمع صخبًا على الباب .. كأن جسدًا زلقًا هناك ..

لن وجدني ..

إلى النافذة ! ... إلى النافذة !!

- 1 -

الغموض يجذب الغموض .. منذ اشتهر اسمي كمؤد للحركات الخارقة ، قابلت قصصا وأحداثا غريبة اعتقد الناس أنها تتوافق مع اهتمامي . بعضها كان تافها وبعضها كان دراميا شديد التأثير . بعضها أكسبني خبرات غريبة ، وبعضها جعلني أدخل في بحث تاريخي منق . أذكر عن هذه القصص لكن هناك قصة أشعر نحوها بنفور عظيم ، لكنني أذكرها الآن تحت إغراء شديد من ناشر هذه المجلة الذي سمع كلاما غامضا عنها من أفراد أسرتي .

القصة تتعلق بزيارة غير مهنية قمت بها لمصر منذ 14 سنة . لست راغبا في نشر الحقائق التي يجهلها السياح الذين يزورون مصر وتخفيها الحكومة المصرية بعناية ، برغم أنها تعرفها بالطبع . أضف لهذا أنني غير راغب في سرد قصة لعب فيها خيالي دورا عظيما ما رأيته أو حسيت أنني رأيته لم يحدث بالتأكيد . وربما هو نتيجة قراءاتي في علم المصريات لو أضفنا لها إثارة حادث معين رهيب في حد ذاته فسنسوف نفهم تلك الليلة المفزعة التي مضى عليها وقت طويل .

في يناير عام 1910 أنهيت ارتباطا في إنجلترا ووقعت عقدا لجولة في مسارح أستراليا . كان هناك وقت وافر أمامي لذا

سجين مع الفراشة (*)

(*) كتبها خديجة لصديقه اشعور (هوديس) أبرع المختصين في فروع الهروب من القيود عبر التاريخ

قررت أن أنتفع به في السفر ، وقد اصطحبت زوجتي إلى مارسيليا لتركب السفينة مالوا المتجهة إلى بورسعيد . وقررت أن أזור أهم آثار الصعيد قبل أن أتجه إلى استراليا .

كنت مصمماً على أن أبقى شخصيتي سرّاً ، لكنني تخليت عن هذا عندما قابلت زميلاً ساحراً أصر على أن ييهر المسافرين بالعليه مما جعلني لا أقاوم الرغبة في تلبية حركاته بشكل أفضل . كان على أن أتوقع ما سيحدث نتيجة هذا التصرف . وقد حرمني هذا وزوجتي متعة أن نمضي رحلة هادئة في مصر . لقد صرت لنا نفسي أثراً غريباً يقف بينما يشاهده الناس !

جننا لمصر لنرى العموض والجمال ، عندما رست السفينة في بورسعيد وركبنا قوارب صغيرة للشط ، لم نر سوى مدينة صغيرة شبه أوروبية لا غريب فيها سوى تمثال (دي لميس) ، لهذا قررنا السفر إلى القاهرة سريعاً لنرى الأهرام ومنها إلى الإسكندرية لتركب إلى استراليا .

كانت رحلة القطار مريحة ، واستغرقت أربع ساعات بالضبط .. أخيراً وصلنا إلى القاهرة . لكن خيبة الأمل لم تفارقنا لأن كل ما فراه كان أقرب إلى أوروبا ما عدا ثياب الناس .. هناك ميدان يعج بالسيارات والعربات . اتجهنا للفندق (شيرد) عبر شوارع حسنة التصميم حيث بدت لنا أسرار الشرق وسحره أشياء بعيدة جداً .

لكن اليوم التالي أخذنا إلى قلب ألف ليلة وليلة وبدأنا كان بغداد (هارون الرشيد) تحيا ثانية . اتجهنا شرقاً مارين بحدائق الأربكية ثم للموسكى ومرعان ما صرنا في يد دليل سياحي لم يمر بالتطور الحديث ، لذا كان سيذا لحرفته .

لم أعرف إلا متأخراً أنه كان على أن أطلب من الفندق دليلاً مرخصاً ، لكن هذا الدليل كان رجلاً حليق لوجه عميق للصوت يبدو كالفراعة ويطلق على نفسه (الريس عبد الله الترجمان) وكان من الواضح أن له قوة ونفوذاً على رفاهه ، لكن الشرطة فيما بعد قالت إنها لا تعرفه ، وإن لفظة (الريس) تطلق على أي شخص ذي سلطة .

أرانا عبد الله غرائب كنا نقرأ عنها فقط فيما مضى ، وكانت القاهرة القديمة نفسها حلماً وكتب تاريخ .. لزقة من حوار ضيقة تفوح بعطر غامض بين الشرفات الأرابيسك التي توشك على أن تتلاصق فوق الشوارع المرصوفة بالحجارة . مع (كاليوسكوب) من الأنواب والأحجية والعصائم والطرابيش ، مع صوت المؤذنين فوق المآذن على خلفية من سماء زرقاء لا تتغير .

لكننا أبقينا نروة المتعة للمتحف المصري حيث السحر المظلم لمصر الفرعونية . أخذنا عبد الله لشارع محمد على حيث مسجد السلطان حسن وحيث الدرجات التي تقود للقلعة التي بناها صلاح الدين نفسه بحجارة من الأهرام المنسية .

(*) ليس هذا الوصف الحق وصف مصر ، ولكنه الخط الممتد في ذهن الغربيين .

عند الغروب صعدنا إلى مسجد محمد على وألقينا من فوق المتاريس نظرة على القاهرة التى بدت قبابها بلون الذهب . الشمس تغرب الآن جالبة الغسق المصرى المشير للقشعريرة ، وأمامها رأينا سلوبت أهرام الجيزة ، عندها عرفنا أننا انتهينا من القاهرة الإسلامية وعيننا أن نذوق أسرار مصر الأقدم . عالم رع وآمون وإيزيس وأوزيريس .

فى اليوم التالى ذهبنا إلى الجيزة فعبرنا شارع الهرم ، ومررنا بقرى فقيرة . أربعة قرون كما قال بوناپرت تنتظر لنا من أعلى . فى النهاية وصلنا ما بين محطة الترولى وفندق ميتا هاوس ابتاع لنا عبد الله تذاكر زيارة الهرم وكان واضح الكفاءة . فقد أبعد عنا البدو الذين كانوا يترصدون بنا وأحضر لنا جمالاً .. كانت المسافة التى سنقطعها قصيرة ، لكننا لم نندم على إضافة هذه الخبرة الصحراوية المروعة إلى تجاربنا .

إن الأهرام تقع على نجد صخرى عال . الهرم الأكبر يقع قرب الطريق الحديث وقد بناه الملك خوفو نحو 2800 قبل الميلاد ، ثم إلى الجنوب الغربى تجد الهرم الثانى الذى بناه خفرع ويبدو أعلى برغم أنه أصغر . ثم تجد الهرم الأصغر لمنقرع ..

سوف تجد أهراما أصغر وبقايا فى عدة مواضع .. سوف تجد المصاطب وتشبه مقبرة (بيرنيب) الموجودة فى المتحف المتروبوليتانى فى نيويورك . جوار كل مقبرة معبد جنازى كان الكهنة والأتقارب يقدمون فيه الطعام للروح الهائمة (كا) .

هنا كان تمثال خفرع بالحجم الطبيعى من الصخر البركاني والموجود الآن فى المتحف المصرى .. هو تمثال وقفت أمامه خاشعا عندما رأيته .. عرفت أن الألمان هم من وجدوه وتمنيت أن أعرف المزيد عن تلك البئر التى قيل إن التمثال وجد فيها مع تمثيل أخرى لقردة بابون .

راح الطريق ينحني ونحن فوق الجمال ، حتى وجدنا أنفسنا أمام الصحراء . واد من الأهرام الصغيرة خلفها يلتمع النيل شرقاً والصحراء للخالدة غرباً ..

هبطنا نحو أبى الهول وجلسنا صامتين تحت هاتين العينين الرهيبتين اللتين لا تريان .

هنا تعالت صرخات البدو يطالبون السياح بالإسراع فى إنهاء رحلة صعود وهبوط الهرم الأكبر ، وكانوا يعتبرون الوقت الأمثل لهذه الرحلة سبع دقائق .. لكن بعض المشايخ قالوا إنهم قادرون على إنهاء التسلق والنزول فى خمس دقائق لو منحناهم

البقيش . ومن أبى رواش إلى دهشور جنوباً رأينا هرم مقارة الذى يمثل التحول من المطبة إلى الهرم الحقيقى . لم نستطع دخول الهرم الأكبر لأن البدو ضائقونا بالحاحهم دعك من أننا صرنا مرهقين عاجزين عن هذه الرحلة المنهكة .

فى المساء كان أفراد مجموعتنا منهكين من برنامج اليوم ، لذا مضيت وحدى مع (عبد الله) فى جولة .. فقد أدت أن أرى الأزقة والبازارات فى ضوء الضيق الذى يكسبها سحراً . مشينا إلى سوق النحاسين حيث قابلنا كبيرهم .. لم يحينا كثيراً ولم يبد سعيداً بليلى المخلص .. ربما لم يحب صوت (عبد الله) لصيق ولربما لم يحب ابتسامة (أبو الهول) الجانبية على شفتى . على كل حال لم يطل الوقت قبل أن يمسك (على عزيز) كما سمعتهم ينادونه بتلابيب (عبد الله) . وسرعان ما تطور الأمر لمشجار متبادل وفقد الرجلان غطائى رأسيهما للمقدسين ، وكان الأمر ليتطور إلى أسوأ لولا أن تدخلت لأفصل بينهما .

لم يرحب الرجلان بتخلى ، لكنهما تباعدا وراح كل منهما يستعيد كرامته ثم اتفقا على تسوية خلافهما باتفاق رهيب .. اتفقا عرفت أنه عادة عريقة فى مصر . سوف يسويان ما بينهما بقبضة اليد على قمة الهرم ، بمجرد أن يغيب آخر ضوء للقمر .

بدا لى الأمر مثيراً .. الصراع فوق هذه القمة التى تطل على صحراء الجيزة فى ضوء القمر . وقد طلبت من عبد الله أن يصحبنى معه فوافق .. وهكذا صاحبتة وهو يجول البلدة فى أحياء أكثرها شمال الأربكية ، بجمع مجموعة من البلطجية للخطرين ليصاحبوه فى قتال الليلة .

بعد التاسعة ركبت مجموعتنا على حمير تحمل أسماء تعلموها من الصباح مثل (مورجان) و (مارك توين) وعبرنا ذلك الجسر الذى يحرسه أسدان من البرونز . استغرقت الرحلة ساعتين ونحن وحدنا مع الظلام والماضى .

ظهرت الأهرام فى نهاية الطريق رهية تدعو للتوجس .. ألم يبقوا هنا الملكة نيتوكريس حية إلى الأسرة السادسة ؟ .. سمعت أن العرب يحكون أشياء عن هذه الملكة نيتوكريس ويتحاشون الهرم الثالث ليلاً .. إنها التى كتب عنها (توماس مور) واصفاً إياها بـ (سيده الهرم) .

برغم أننا كنا مبكرين فقد وجدنا أن (على عزيز) وجماعته سبقونا .. كنا قد تجنبنا المرور قرب مينا هلوس حتى لا يستوقفنا رجال الشرطة . واتجهنا نحو الهرم الأكبر حيث كان البدو ينتظرون ..

دارت المعركة بالنكبات وراقبتها . كانت سريعة جدًا وبرغم تحفظي على الطريقة فبني شعرت بالفخر عندما أعلنوا أن (عبد الله) هو الفائز .

كان الصلح سريعًا بشكل ملفت حتى إبتني صرت بصعوبة قادرًا على تذكر أن مشاجرة قد وقعت . ومن الغريب أن الاهتمام تحول نحوي أنا .. على قدر فهمي للعربية أدركت إتهم يتكلمون عنى وعن قدراتي الغربية في الفرار من أى سجن ، وقد أثار دهشتي أنهم يعرفوننى ، كما شملت رائحة عدوانية ما . وبدأت أفهم أن سحر مصر القديمة لم يبرح البلاد ، وأن ممارسات سحرية عدة ما زالت موجودة ، إتهم يشكون فى ألعاب الحواة .. وخطر لى أن تدلى عميق الصوت (عبد الله) يبدو ككاهن مصرى قديم .

فجأة أدركت أن أفكارى لم تكن غير ذات أساس ، لأنه من دون إنذار واستجابة لإشارة خفية من (عبد الله) هجم على أولئك البدو وقاموا بتقييدى بحبال غلاظ .

قاومت طويلاً لكنى أدركت أن رجلاً وحيداً لا يقدر على الانتصار على عشرين بدويًا قويًا . ربطت يداى خلف ظهري وثبتت ركبتيّ وربطوا يدي لكاحلى .. ثم وضعوا كمامة خاتقة على فمى عصبوا عيني وحملوني على الأكتاف ونزلوا بى من فوق الهرم .

وسمعت (عبد الله) يقول إتهم سيضعون قواى السحرية تحت الاختبار حالاً .. ولنسوف أفقد أى غرور اكتسبته من تجاربى فى أوروبا وأمريكا .

إلى أية مسافة حملوني ؟ .. وفى أى اتجاه ؟ .. لا أعرف .. كل الظروف منعتنى من تكوين رأى صائب ، لكن بالتأكيد لم تكن مسافة بعيدة ..

وضعوني على أرض ميزت أنها رمال وليست صخرًا .. ربطوا حبلًا حول صدرى وجرونى إلى فتحة فى الأرض ، وقاموا بإنزالى هناك . رحت أتخبط لوقت طويل فى الجدران لبثر ضيقة اعتقد أنها مدفن قديم ..

كان رعب التجربة يتزايد مع كل ثانية ، وبدأ لى أننى أقترب من مركز الأرض ذاته وأنه من الغريب أن يقدر حبل صنعه بشر على أن يتدلى لهذه الأعماق التى لا نهاية لها . إن حاسة الزمن تخدع المرء كثيرًا ، لكنى كنت واعيًا تمامًا حتى تلك اللحظة ولم يضيف خيالى شيئاً لصورة مريعة فى حد ذاتها .

لم يكن هذا سبب إغمائى لأول مرة .. لقد بدا أن معاناتى تتزايد بسرعة ، وظهر هذا واضحًا مع ازدياد سرعة الهبوط .

كانوا يدلون الحبل بسرعة وقد رحت أرتطم بلا رحمة بجوانب
البنر وأنا أهبط بجنون . تمزقت ثيابي وشعرت بالدم ينزف ..
وشمعت رائحة رطبة عطنة تختلف عن أية رائحة شمعتها في
حياتي ، فيها أثر خافت لطور وتوابل قديمة .

ثم جاءت الجائحة العقلية .. كانت مربعة تفوق أي وصف
مرتب . كانت هذه نروة الكوابيس .. في لحظة كنت أتعذب بناب
ألف وحش في تلك البنر ، وفي اللحظة التالية كنت أخلق فوق
أجنحة الوطاويط في الجحيم . أخلق فوق أميال من الفضاء بلا
حدود ، ثم أهبط لفراغ ضار بيعث الغثيان . حمداً لله لأن النسيان
محا هذا الجنون الذي مزق روحي .

لكنني استجمعت قواي وعقلي لأتحمل هذا الرعب الكوني الذي
ينتظرني .

- 2 -

تدريجياً عنت لحواسي بعد هذا الصراع العجيب في فضاء
جحيمي . كانت التجربة ألزمة بحق وبلا نهاية ، ولم تكن طبيعة
أحلامي واضحة لكنها اضطربت في خيالي فلم يبق منها سوى
الهيكل العظمي .

حلمت أنني في قبضة قدم عملاقة .. قدم صفراء مشعرة ذات
خمسة مخالب تمتد لتهدمني .. ورأيت نفسي فريسة روح غولية
من سحر النيل القديم .. أرواح وجدت حول النيل قبل أن يوجد
بشر وستبقى بعد رحيلهم .

رأيت مقابر الموتى وموابك الكهنة عبر ممرات ومنازل
بصير المرء وسطها نياحة . ورأيت الشر الخام أسود عديم
الشكل يتبعني في الظلمات ليخلق تلك الروح التي تجسدت أن
تحلني هذا السحر .

في عفتي للنائم كانت ميلودراما من الشر والمقت .. وسمعت
روح الشر تتناديني وتهمس بصوت غير مسموع . تهبط بي إلى
قلبي الفرعوني المظلم الرهيب ..

ثم بدأت الرؤى تأخذ شكل وجوه بشرية .. رأيت دليلى (عبد الله) فى ثياب ملك وعلى ملامحه ذات تعبير (أبو الهول) الساخر . وأنا أعرف أن هذه ملامح (خفرع) الذى شيد الهرم الثانى .. ونظرت ليد الطويلة النحيلة التى رأيتها فى تمثال الحجر البركاتى فى متحف القاهرة . هذه اليد ! .. أراها الآن على (عبد الله) نفسه .. باردة تعصرنى ..

هنا بدأت أصحو .. أو أبعد نوعاً عن حالة النوم التى كنت فيها .. تذكرت الشجار وقمة الهرم واعتداء البدو .. عرفت الآن أننى راقد على أرض صخرية ندية وقيودى محكمة بشدة . كان البرد شديداً وقد شعرت بتيار هواء بارد يمر بهى ..

كانت الجروح والسحجات التى أصابتنى أثناء النزول تؤلمنى بحق ، وكانت أية حركة كفيفة بأن تفعمنى ألماً .

نظرت لأعلى فوجدت أن الحبل الذى نزلت به كان ما زال يتسلق لأعلى ، فلم أدر إن كان البدو ما زالوا معسكين به أم لا .. وقدرت أنى فى معبد (خفرع) أو كهف لم أراه أثناء جولة الصباح ، وهذا يعنى أن بوسعى الفرار على أول التحرر من قيودى .. لن يكون هذا عسيراً أن أخبراء كثيرين جربوا كل حيلة لديهم لكنهم لم ينجحوا فى منعى من الهرب .

كان تفكيرى الرئيس هو هزيمة هؤلاء لذا صممت على أن أتحرر بأسرع ما يمكن .. مع تحاشى أى جذب للحبل قد يفضح محاولتى للتحرر .

لكن تنفيذ هذا كان أصعب من التفكير فيه ، لأن الحبل هوى ليتلى جوارى ، وفهمت أن البدو قد شعروا بمحاولتى فتركوه يسقط فى البئر ، وهرعوا ينتظروننى عند مدخل المعبد . كان الموقف غير سار لكننى واجهت ما هو أسوأ فى حيتى ولم أهتز .. ولن أهتز الآن .. على أن أتحرر من قيودى ، ثم أفكر فى الهرب من هنا سليماً . لكن الحبل الذى سقط فوقى كان يتكوم أكثر فأكثر بما يفوق الحبل العادى .. كان ثقيلاً جداً يشى بالمسافة الهائلة التى نزلتها . وبدأت أشعر بأننى أختنق .. ثم الشعور بأننى هبطت كثيراً جداً فلابد أننى فى موضع قرب قلب الكوكب ..

عندما فقدت الوعي ثانية طاردتنى كوابيس مصر وأسرارها المنسية .. للموتى وتلك المقابر التى كانت بيوتاً أكثر منها مقابر . تذكرت أضرحة مصر القديمة والعقيدة التى كانت وراء بنائها .

لم يكن قدماء المصريين يفكرون إلا فى الموت .. آمنوا ببعث الجسد كما هو وآمنوا بروح تبقى فى النعيم مع لوزيريس ، ثم (الكا)

جوهر الحياة الغامضة التي تتحرك بين العالمين السفلى والعلى بشكل مفرع . وتحاول الوصول إلى الجسد المحنط وأحياناً تستولي عليه أو على التمثال الخشبي الذي يشبهه ..

منذ آلاف السنين وتلك الأجساد ترقد ناظرة لأعلى بعيون زجاجية بانتظار البعث ، وابتظار أن تجتمع فيها النكا والروح ليخرج الموتى من دار النوم . ربما يتحدث الناس عن اجتماعات غير مقدسة في هذه الكهوف والأقبية لا يحضرها سوى كا وهذه الموميائات .

من أقطع الموميائات تلك التي تجمع بين جذوع بشرية وأطراف حيوانية ، والتي زعم الكهنة أنها ناجمة عن اتحاد بين البشر والحيوانات للوصول إلى أشباه آلهة . أما ما حدث لهذه الموميائات فلا نعرف .. لم يجد أي عالم مصريات واحدة منها . يقولون إن خفرع ما زال حياً تحت الأرض وقد تزوج نيتوكريس وهو يحكم الموميائات التي لا هي بشر ولا وحوش .

حلمت بخفرع ومملكته من الموتى .. لهذا أنا مسرور لأنني نسيت أكثر هذه الكوابيس .

عندما أفقت من غيوبتي لاحظت أن تلك الحبل الثقيل الذي كان يجثم فوقى ويخنقتى غير موجود .. هناك من رفعه عنى !

أنا وحدى ... لكن مع أى شيء ؟

قبل أن أعذب نفسي بمزيد من الأسئلة ، وقبل أن أفكر فى التحرر من قيودى ، كانت آلام جديدة تمزق ذراعى ورجلى . وأدركت أننى مغطى بالدم بشكل لا يمكن تفسيره بالجروح التى أصابتنى أثناء الهبوط .. الشيء الذى نزع عنى الحبل قد جرحنى ولحمتى بلا رحمة ، ثم توقف بلا تفسير .

رحمت لك قيودى مستصلاً للفن الذى مارسته مراراً أمام الأنواء والتصفيق . على أن ألق غير مقيد غير مضمد العنوين وغير مكتوم الفم فلربما أرى ضوءاً أعرف به أين أنا .

فى النهاية وبعد وقت طويل تحررت ، فوفقت أستشيق الهواء غريب الرائحة . وأدركت أن عضلاتى متصلبة لا تسمح لى بالحركة فوراً .. لذا جلست وفردت جمدى لفترة طويلة ورحمت أفتش عن مصدر ضوء يلمح لى بمكتلى .

استعنت قواى لكن عيني لم تريا شيئاً .. لا شيء سوى ظلمة ابنومسية كالتى كنت أراها والعصابة على عيني . نهضت وأدركت أننى قادر على المشى .. كان هناك هواء بارد كريح الراححة لذا قررت أن هذه أقرب نقطة للمخل ولصوف ألتخذها مرجعاً لجولتى .

كنت معى ثقب وكشاف صغير ، لكن جيوب ثيابى تم إفراغها من أى شيء ثقيل . مصر ! .. الشرق ! .. هذا الموضع من العالم يحوى الكثير من قرع والكثير من المسحر ..

قررت أن أتبع تيار الهواء الغريب ، فهو سوف يقودنى إلى فتحة من أى نوع . ربما أفضل .. هذا أعرفه .. فمن الواضح أن هذا ليس جزءاً من معبد خفرع الذى يعرفه السياح . ربما هو موضع لم يسمع عنه أى عالم أترى من قبل ، فلا يعرفه سوى الأعراب الذين سجنونى .

هل هى نهايتى ؟ .. ربما كان من الرحمة أن تكون هذه هى لحظتى الأخيرة ..

فقدت وعيى من جديد ... كلما تذكرت تلك الليلة شعرت بنوع من الدعابة فى الأمر لأننى تذكرت الأفلام الميلودرامية التى كانت موضحة العصر حيث كانت الإغماءات تتتابع .

ربما كانت تلك هلوسة طويلة بدأت بهبوطى فى البئر وانتهت بى فى صحراء الجيزة على الرمال تحت الشمس الحارقة . فيما بعد قال لى رجال الشرطة إن مدخل معبد خفرع كان مفتوحاً وإن هناك صدعاً إلى السطح ما زال موجوداً . من الغريب أن وصفى للدليل لم يساعد أى واحد فى أن يعرف من هو .. الرئيس عبد الله للترجمان الذى يبدو ويتصم مثل الملك خفرع .

لقد ابتعدت عن قصتى الأصلية ربما لأجنب هذه النقطة التى اعتبرها هلوسة . عندما أفقت أو خيل لى إننى أفقت ، عرفت إننى

تعثرت فوق درجات حجرية . وكنت الريح الكريهة قوية الآن بشكل شيطانى .. لكننى كنت قد ألفتها . بدأت أزحف وأنا ألتصص الأرض بيدين دامتيتين . اصطدم رأسى بعمود .. عمود عملاق لدرجة لا توصف مغطى بنقوش هيروغليفية استطاعت يدى أن تميزها .

قبلت عدة أعمدة عملاقة على مسافات متساوية كبيرة وهنا فطنت إلى إننى أسمع صوتاً .. صوتاً ظل يتردد فى لا وعيى فترة طويلة قبل أن تعيه حواسى . ثم فطنت أنها أصوات عديدة .. أصوات تؤدى طقوساً ما لا شك فيها .. دق دف ... ضربات على الهارب ..

شعرت بذعر يفوق أى ذعر عرفته .. ذعر تجاوز ما هو شخصى ليصير نوعاً من الشفقة على كوكب الأرض الذى يحتضن هذه الأسرار المروعة . الصوت يتعالى كأنهم يقتربون .. ثم بدأت أسمع خطوات هذه الأشياء التى تمشى ..

فليرحمنى الله ! .. إن هذه الأشياء تقترب وصوت خطواتها وزحفها منتظم شحذته آلاف الأعوام من التدريب .. هنا مكان اجتماع المومياوات التى لا روح لها .. ملتقى الحائرين ..

اقتربت الخطوات .. وتواريت خلف عمود حجرى محاولاً إبعاد الرعب عني . الرعب الذى يزحف بمليون قدم نحوى ، ورأيت ضوءاً خافتاً ..

لم أحاول النظر لتلك الأشياء الماشية .. فقط سمعت مفاصلهم التي تحدث صريراً وأنفاسهم التي تعبق بالنترات .. من الرحمة أنهم لم يتكلموا .. لكن رباه !.. مشاعلهم كانت تلقى ظلالاً مجنونة على الأعمدة .. أفراس للتهر لا يجب أن تكون لها أفرع بشر أو تحمل مصابيح .. البشر لا يمكن أن تكون لهم رعوس تلمسح !

حاولت أن أبعد لكن الظلال والأصوات والرائحة الكريهة كانت في كل مكان .. هكذا تذكرت الحيلة التي كنت أردها لنفسى وأنا طفل : « هذا حلم !.. هذا حلم !.. » .. لكنها لم تجد كثيراً ..

كان على أن أفتح عيني عسائ قُبِين في هذا الضوء شبيهاً ببلتى على مكائى ، لكننى كنت مضطراً لغلقي عيني عندما رأيت شيئاً يتحرك بلا جذع فوق خصره ..

كانت غرغرة الموتى تملأ المكان والهواء صار خائفاً من نهب المشاعل . وفتحت عيني مرغماً لأرى مشهداً لا يمكن أن تتحمله عين بشرية .. لقد وقعت الأشياء فى اتجاه واحد بينما مشاعلهم تعكس رعوسهم المحنية أو رعوس من كانت لهم رعوس . كانت تتعب أمام فتحة تتصاعد منها أبخرة كريهة وأدركت أن على جانبها درجاة سلم عملاقة ..

كان حجم الفتحة يتناسب مع حجم الأعمدة الصلابة .. يمكن لببت عادى أن يغيب فيها تماماً ..

أمام هذه الفتحة كانت تلك المسوخ تلقى بأشياء .. ربما قرابين كما فهمت من حركاتها ..

لقد كان خفرع .. بعبارة أخرى كان مرشدنا (الرئيس عهد الله) وجواره الملكة الصناء (نيتوكريس) التي أدركت فى لحظة أن نصف وجهها التهمته الفئران .. ثم رأيت ما كانوا يقذفونه فى الفتحة فأغمضت عيني ..

لمن يتعبون ؟ .. أوزيريس أو إيزيس ؟ حورس أم ثوبيس ؟ ..

خطر ببالي الفرار .. القاعة مظلمة والأعمدة عملاقة والكل مستغرق فى الطقوس .. ربما أصل إلى تلك الدرجات وأصعد دون أن يراقبني أحد . بدا لى من المسلى أن أحاول الفرار من هذا المكان الذى هو حلم ..

بدأت الزحف على بطني متجهاً نحو أسفل الدرج الأسير . كان هو الأقرب . من الصعب أن أصف مشاعري أثناء هذا الزحف لكن بوسع المرء أن يتخيل .. كان أسفل الدرج فى الظلال البعيدة يرتفع إلى ما فوق تلك الفتحة . هكذا صرت على مسافة مقبولة من الحشد وإن أفرغنى منظره برغم أننى صرت بعيداً .

نجحت في بلوغ الدرجات ورحت أتسلق ملتصقا بالحائط ..

كانت الدرجات منحدره وضخمة كأنها مخصصة لقنسى عملاق
وبدا لي الصعود بلا نهاية . خوف أن يرونى وألم جراحى المتجدد
جعل هذا التسلق ذكرى أليلة . وكنت قد صممت على ألا ألقى
نظرة تحتى حتى لا أرى هذا الجمع المخيف الجيفى الذى يقوم
بطقوس مروعة على بعد سبعين قدما من تحتى . فجأة تردد
صوت هذه الفرغرة . وتصلبت للحظة ثم أدركت أنه نوع من
التراثيل وليس بسبب اكتشافى ..

كانت المسوخ تحيى شيئا تحرك فى الفجوة كى يظفر بما
قدموه له . كان شيئا رخوا أصفر مشعرا ذا حركة عصبية . لم
يكن له عنق لكن له خمسة رعوس تبرز فى صف من جذع
أسطوانى ..

من هذه الرعوس برزت ممسات صلبة غريبة تمسك بالطعام
الذى أدخلوه فى الفجوة . أحيانا كان الشيء يعود للفتحة وكانت
حركاته غريبة ، عصية على التفسير لدرجة أنني تصلبت مذهولا
متمنيا أن يبرز أكثر .

هنا خرج .. نعم خرج ...

إذ رأيته هرعت أتسلق الدرجات ورحت أتسلق عبر مسطحات
وسلام لم يرها بشرى من قبل ولا تخضع لمنطق . لابد أن هذا
كان حتما ..

لابد أنه كان حتما وإلا ما وجدنى الفجر أتنفس فوق رمال
الجيزة أمام وجه أبى الهول الباسم الساخر .

أبو الهول العظيم !... السؤال الذى سألته لنفسى .. ما الشيء
العلاقى المخيف الذى نحتوا هذا التمثال ليمثله ؟

منعون هى تلك الرؤيا التى جعلتنى أرى الرعب الأعظم ...
ليكن حتما أو لا .. الكائن المروع الذى يقبع فى هوة سحيقة ،
يلتهم ما تقدمه له مصوخ بلا روح ما كان يجب أن توجد .
المسخ ذو الرعوس الخمسة .. المسخ ذو الرعوس الخمسة
العلاقى ..

لكنى عشت .. وأؤمن أن ما رأيته كان مجرد حلم .

ه . ب . لا فكرافت



نداء كتولو

(العزيز) و (نيكرونوميكون) و (كتولو) و (أرخام)
و (إينزماوث) .. مضردات عالم لافكرافت كاتب الرعب
الأمريكي الأشهر ، التي يستعملها في كل قصصه تقريباً ..
عشاق أدب الرجل يعرفون معنى هذه الكلمات لدرجة
أنهم يشعرون بتوتر غامض عند سماعها ، والبعض
يشعر بأن لافكرافت هو نفسه شخصية مرهقة حساسة
مريضة من شخصيات قصصه .

اليوم نلبى نداء (كتولو) الرهيب النائم في أعماق
المحيط ونعرف أكثر ...

العدد القادم

لورد جيم



المؤسسة
العربية للحداثة

لجميع الناشئين والناشريات بالأسعار المخفضة

التمن في مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم